



الإبتلاء مدرسة الإستقامة

سَلَامٌ عَلَى الرَّسُولِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَرْسَلَكَ بِالْحَقِّ
النَّبِيَّ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَكِّيٌّ مَدِينِيٌّ

الإبتلاء

مدرسة الإستقامة

سَمَاحَةُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ آيَةُ اللَّهِ الْعَظِيمِ الْحَاجِّ
النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ تَقِيٍّ الْمَدِينِيِّ

سرشناسه: مدرسی، سید محمد تقی، ۱۹۴۵ - م.

Mudarrisi, Muhammad Taqi

عنوان و نام پدیدآور: الإبتلاء مدرسة الاستقامة/ سماحه السيد محمد تقی المدرسی.
مشخصات نشر: قم: دفتر آیت الله العظمی حاج سید محمد تقی مدرسی، انتشارات راه
هدایت، ۱۴۴۴ ق.= ۲۰۲۳ م.= ۱۴۰۱.

مشخصات ظاهری: ۲۰۵ ص.: ۵/۱۴/۵×۲۱ س.م. شابک: ۶-۲-۶۸-۹۳۰-۹۳۲-۶۷۸
وضعیت فهرست نویسی: فیبا

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشران متفاوت منتشر شده است.
یادداشت: کتابنامه به صورت زیرنویس. موضوع: امتحان الهی -- جنبه های قرآنی

Ordeal -- Qur'anic teaching

امتحان الهی

Ordeal

صبر -- جنبه های قرآنی

Patience -- Qur'anic teaching

رده بندی کنگره: BP۱۰۴

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۵۹

شماره کتابشناسی ملی: ۹۱۵۰۷۶۳

اطلاعات رکورد کتابشناسی: فیبا

۱۴۴۵هـ / ۲۰۲۳م

الإبتلاء مدرسة الاستقامة

المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقی المدرسي

الطبعة الاولى (السابع للكتاب)

العدد: ۱۰۰۰ (۲۰۵ صفحة)

المطبعة: نينوا

السعر: ۶۳۰۰۰۰ ريال

رقم الايداع الدولي: ۶-۲-۶۸-۹۳۰-۹۳۲-۶۷۸

دار طريق الهدى للطباعة والنشر والتوزيع - قم المقدسة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ

الملك: ١-٢.

الفهرس

المقدمة..... ١٥

الفصل الأول: حكمة الإبتلاء ١٤/١٢



- ١- لماذا الإبتلاء؟ ٢١
- الفتنة تطهر الانسان ٢٢
- الصراع فتنة ٢٤
- عقبى الفتنة..... ٢٥
- ٢- حتمية الإبتلاء ٢٧
- سر ظاهرة الموت ٢٨
- لا حياة بدون مشاكل ٣٠
- المؤمن خفيف المتاع ٣٢

- ٣٦ من حِكم الإبتلاء
- ٣٧ محق الكافرين
- ٣٩ ثمن الجنة
- ٤١ ٣- استعادة الوعي حكمة الإبتلاء
- ٤٢ ضرورة وعي الأحداث
- ٤٣ حكمة المآسي
- ٤٥ هدف الإبتلاء
- ٤٧ إستعادة الوعي
- ٤٩ الى متى الهزائم؟
- ٥١ ٤- الضراعة هدف الإبتلاء
- ٥٢ سبب جميع المآسي
- ٥٥ إثارة الفطرة حكمة الإبتلاء
- ٥٨ حقيقة الضراعة
- ٦١ ٥- تزكية النفوس مراد الإبتلاء
- ٦٢ هدفية الوجود تشمل كل شيء
- ٦٢ الفتنة.. هدف أساس
- ٦٣ الآثار الايجابية لمعرفة الهدف

٦٤	تأثير الابتلاء على النفس المؤمنة
٦٦	الابتلاء غاية الحياة
٦٧	هدفية الحياة في القرآن
٦٨	الأنبياء طليعة الخلق
٧٠	المنافقون شياطين الإنس
٧١	الابتلاء يفضح المنافقين
٧٢	كيف تتعامل مع الفتن
٧٥	٦- الثبات ثمرة الإبتلاء
٧٧	أعظم الفتن
٧٩	تقييم واقعي
٨٠	سر الانتصار

الفصل الثاني: ثمار الإبتلاء ١٢٢/١٣٣



٨٥	١- الثمار الإيجابية للإبتلاء
٨٦	كيف تعامل الائمة مع المآسي؟
٨٧	المصائب ضرورة
٩٠	التضرع هدف للإبتلاء

- ٢- سبيل العودة الى الفطرة..... ٩٣
- النموذج الأسمى ٩٣
- كيف يعود الانسان الى فطرته..... ٩٦
- فلسفة المآسي ٩٨
- ٣- حكمة الحياة..... ١٠١
- ٤- حكمة الوجود..... ١٠٩
- الامتحان الجماعي ١١١
- أهم مواصفات القيادة ١١٤
- حكمة الوجود..... ١١٦
- ٥- مصنع الرجال ١١٩
- حقيقة الابتلاء في القرآن ١٢٠

الفصل الثالث: حصن الإبتلاء ٢٠٥/١٢٣



- ١- معدن الإستقامة..... ١٢٥
- معدن الإنسان ليس مادياً ١٢٧
- قصة تاريخية حكيمة..... ١٢٩
- الأسوة الحسنة في رسول الله ١٣٢



١٣٣	سبيل الإستقامة والثبات
١٣٤	الإعداد والاستعداد
١٣٦	الزهراء عليها السلام نموذج المعدن الطاهر
١٣٧	التراجع يعني الردّة
١٤١	٢- الإستقامة عزة ورفعة
١٤٢	الأيام دول بين الناس
١٤٢	الإجابات الشافية في القرآن
١٤٣	١- الاستقامة أمر إلهي
١٤٤	٢- عدم الركون الى الظالمين
١٤٦	٣- الصلاة وقود الاستقامة
١٤٧	٤- الصبر والنظرة البعيدة
١٤٩	٥- الاسلام مرهون بالجهاد
١٥١	٣- كيف نستقيم في ظروف الإبتلاء؟
١٥١	الفتنة سنة الهية
١٥٤	الفتن متعددة
١٥٦	كربلاء، الفتنة.. الاستقامة
١٦٣	٤- الإعداد سبيل الإستقامة

- ٥- الإستقامة ثمن الأهداف العظيمة ١٧٥
- شرط الوصول لمرضاة الله ١٧٥
- طريقنا مليء بالتضحيات ١٧٦
- التأييد الإلهي ١٧٧
- البشارة بالجنة ١٧٩
- بنود الاستقامة ١٨٠
- ٦- الإستقامة ضمان النجاح ١٨١
- عصمة من الخلاف ١٨١
- الإنسان مسؤول عن أعماله ١٨٣
- إستقم ولا تطغ ١٨٤
- الصلاة زاد روحي ١٨٥
- عدم استعجال النتائج ١٨٦
- ٧- الجنة ثمرة الإستقامة ١٨٩
- لكي نكون من أصحاب الجنة ١٩١
- كيف نضمن الاستقامة؟ ١٩٢
- ٨- الجنة ميراث الإستقامة ١٩٧
- الاستقامة ثمن الجنة ١٩٨

٢٠١	الاستقامة واقع لا خيال
٢٠٥	الاستقامة والتربية الصالحة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين
محمد وآله الطيبين الطاهرين .

منذ أن يفتح الإنسان عينيه على هذه الدنيا ، وإذا به يُمتحن بكل
شيء يتصل به ، سواء كان خيراً أم شراً . فتراه مرة يُبتلى بالغنَى وأخرى
بالفقر ، ومرة بالصحة وأخرى بالسقم ، ومرة بالأمن والاستقرار
وأخرى بالهجرة والاضطراب .

وعلى هذا من الضروري للإنسان وهو يمارس الحياة ونعمة الوجود
أن يعرف أنَّ الابتلاء جزء من وجوده دون أن ينفك عنه ، ومن دونه
تصبح حياته بلا روح وبلا هدف .

وبالتأكيد إنَّ ربنا عزَّ وجل حينما سنَّ هذه السُّنَّة ، وفرَّ للإنسان
من جهته الشروط والمستلزمات التي تجعل الإنسان مسؤولاً عن

الامتحان ، فتكون حجتة عليه عندما يفشل ويكفر ، ووسيلة لصالحه عندما ينجح ويؤمن .

فلكي يتسامى الإنسان عن حتميات المادة ومؤثراتها الضاغطة ، ولكي يبقى مالكاً للعالم متصرفاً فيها ، لا مملوكاً لها مسترسلاً معها ، وبالتالي لكي لا تطغيه الثروة والسلطة وتجره الى الترف والفساد.. لا بد له من أن ينتبه الى أن الثروة ليست دليل كرامة الإنسان ، فلا يستبد به الغرور فيزعم أنه على الحق ، ثم يتسافل فيزعم أنه بذاته الحق ، ثم يبلغ به السفه والطغيان فيزعم أنه الرب الأعلى !!

بلى ، الثروة بذاتها نعمة وكرامة ، ولكنها في ذات الوقت هي ابتلاء واختبار . فليست الثروة رجساً وليست كرامة دائماً ، بل هي حقيقة بلا هوية وبلا صبغة ، وإنما تكتسب هويتها وصبغتها من طريقة تصرف الإنسان فيها . وكذلك الفقر ليس بذاته نقمة ، وإنما النقمة الاستسلام للفقر ، والاعتقاد بأنه دليل ذلّ ومهانة ، في حين أن الفقر ليس ذلك ، بل هو اختبار . وهكذا جميع الابتلاءات التي يعيشها الإنسان ، إنما تهدف إختباره .

وتبعاً لهذا مادام الإنسان خُلِقَ ليعيش الابتلاء تلو الابتلاء ، فماذا عليه ان يفعل لكي يتجاوز ذلك بنجاح باهر؟

بالتأكيد لا يمكن إحراز هذه النتيجة من دون الاستقامة، وذلك لأن الاستقامة هي جوهر كل إنسان، والذي لا يتمتع بها فانه منهزم في جوهره وكيانه، وعاجز في قدراته، وفاشل في حياته. وبناء على ذلك فان الاستقامة هي مقياس جوهر الإنسان وميزان نجاحه.

من خلال الإطلالة على هذه الحقائق، تلمس ضرورة التأمل أكثر في تفاصيلها، ولكي تصل الى مرامك هذا نقدم لك هذا الكتاب، الذي هو عبارة عن منظومة رؤى وأفكار في هذا المجال، استخلصناها من جملة أحاديث سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي حفظه الله. سائلين الله تعالى أن يجعله مفيداً ونافعاً، وراجين ثوابه، إنه ولي التوفيق.

القسم الثقافي في مكتب المرجع الديني
آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي دام ظله
٢٠ / ذو الحجة / ١٤٢٢ هـ

الفصل الأول:

حكمة الإبتلاء

- ١- لماذا الإبتلاء؟
- ٢- حتمية الإبتلاء
- ٣- استعادة الوعي بحكمة الإبتلاء
- ٤- الضراعة هدف الإبتلاء
- ٥- تزكية النفوس مراد الإبتلاء
- ٦- الثبات ثمرة الإبتلاء

-/-

لماذا الابتلاء؟

إن الانسان عندما يولد، تولد معه فرصتان متساويتان ككفتي الميزان اللتين لا رجحان لإحدهما على الأخرى، فرصة الخير، وفرصة الشر، فرصة الدخول الى الجنة، وفرصة الدخول في النار. ثم يدخل الانسان بعد ذلك في سلسلة لا تنتهي من الامتحانات، وهذه الامتحانات تتعمق وتصبح أكثر صعوبة عند البلوغ، وفي بعض الأحيان تغدو امتحانات عسيرة شديدة.

وكلما إزدادت هذه الاختبارات شدة وصعوبة، إزداد نقاء جوهر الانسان. والدليل على ذلك إن أصل كلمة (فتنة) مقتبس من وضع الذهب في النار، لأن هذا المعدن يختلط بسائر المعادن، فلكي يُصَفَّى وتذهب عنه تلك الشوائب، فانه يحتاج الى (الفتنة)، أي الى أن يُعرض

لنار ليزوب فيها وتزول الزوائد منه. وقد استخدم القرآن الكريم هذا المصطلح في مواضع عديدة، منها سورة «البروج» حيث يقول عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾^١.

فما هو - يا ترى - معنى الفتنة للمؤمنين في هذه الآية الكريمة؟ إنها تعني، أن في داخل المؤمن خليطاً من رواسب الشرك والذنوب والخطايا. فالكثير من الناس كانوا يعانون في مقببل أعمارهم من إنحرافات، كالكذب والغيبة، والنظر أو الاستماع الى ما حرمه الله تعالى، وما الى ذلك من ذنوب. وهذه الذنوب تظل في أعناقنا بالتأكيد، لأنها مسجلة في اللوح المحفوظ، وقد أحصتها الملائكة علينا. كما أن كل شيء يشهد على الانسان، كالأرض التي ارتكب الذنب عليها، والجوارح التي مارس بها هذا الذنب. أضف الى ذلك، إن الذنوب تترك آثاراً على قلب الانسان، فهي ترين عليه، وتحيط به.

الفتنة تطهر الانسان

والفتنة هي التي تتكفل بازالة رواسب الذنوب، والثقافة الجاهلية، والانحراف، وآثار التربية الفاسدة من نفس الانسان وقلبه. وقد تتجسّد

١- البروج: ١٠.

الفصل الأول: حكمة الابتلاء

الفتنة في الجهاد في سبيل الله عز وجل أو العيش في دار الهجرة. والألم الذي يعاني منه الانسان في هذه الحالة، يؤدي الى تطهير القلب، كما تطهر النار الذهب من الرواسب العالقة به. ولذلك فإنّ الانسان المؤمن حقاً يحب الفتنة، ويتقبّلها بصدرٍ رحب، لكي يتخلص من رواسب ذنوبه. وبالطبع فاننا نعوذ بالله تعالى من جهد البلاء وشدته، ومن التعرض الى الفتن العظيمة التي لا طاقة للانسان بها والتي تؤدي الى تهيبه وتراجع، وبالتالي سقوطه في الامتحان الإلهي.

وهكذا فان نظرنا الى الصراع بيننا وبين أعداء الدين قائمة على أساس الايمان بالفتنة والاختبار الإلهي، وبالتالي فإنّ علينا أن لا نعترض على الارادة الالهية، ولا نتذمّر منها قائلين: لماذا كل هذه المآسي والمصائب التي تنزل علينا؟ ولماذا لا نعيش مرتاحين كما يعيش الآخرون؟ ولماذا لا نخرج من صراعٍ إلّا لندخل في صراعٍ آخر؟

فطبيعة الحياة الدنيا تقتضي أن يدخل الانسان سلسلة من الامتحانات، ونحن لا نستطيع أن نهرب من تقديرات الله تبارك وتعالى. فقد جاء في الحديث الشريف عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «وَلَوْ أَنَّ مُؤْمِنًا عَلَى قُلَّةٍ جَبَلٍ لَبَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ شَيْطَانًا يُؤْذِيهِ»^١.

وإذا ما أراد الانسان أن يتخلص من الفتن ، فعليه أن يخرج من هذه الدنيا ، وإذا خرج منها ، فإنَّ كل شيء سينتهي ، حيث تبدأ مرحلة الجزاء ، فما دامت الحياة قائمة ، فإنَّ الفتنة قائمة هي الأخرى الى اللحظة الأخيرة من هذه الحياة.

الصراع فتنة

وعلى هذا فان صراعنا مع الأعداء هو صراع ثقافي مبدئي ، وهذا الصراع من مصلحتنا ، لأنَّه يزكينا ويطهِّرنا من دنس الذنوب ورواسب الشرك وحب الدنيا. فمن الضروري أن تكون في حياتنا الصراعات والتحديات ، لكي لا ننسى الآخرة ، ولا نتَّجه الى الدنيا.

وهذا الصراع الثقافي الدائر بيننا وبين أعدائنا ينبغي أن نديره بمهارة وذكاء ، بأن نستغله في تربية الروح الدينية ، وتنمية التقوى ، وإيجاد زخم معنوي في النفوس ، وبعث الحالة الحضارية في أنفسنا من جديد. فكلنا مسؤول ، وسنمثل يوم القيامة كلنا أمام رسول الله ﷺ ليكون شاهداً وحجة علينا فيما عملناه من أجل الاسلام ، وما قدمناه له من تضحيات وعطاءات.

عقبى الفتنة

والتعرض الى الفتن والابتلاءات والخروج منها ونحن أقوى عزيمة وأشد بأساً، وأكثر مضاءً وتصميماً على مواصلة الدرب، والاستمرار في المسيرة.. كل ذلك هو الذي يضمن لنا الارتفاع في درجات الايمان، والتطهّر من الذنوب والآثام، وصقل نفوسنا، وبالتالي المثول أمام رب العالمين جل وعلا بوجوه بيضاء، ونفوس مطمئنة، وأرواح متطلعة الى ثواب ربها ورضوانه. وإلاَّ فإنَّ سوء العاقبة سوف تكون بانتظارنا إذا ما سقطنا في الامتحانات الإلهية، ولم نعرف كيف نستغلها في سبيل الرقي في المدارج العليا للايمان، وذلك من خلال التذمّر منها، وعدم الصمود أمامها، والتهرب من مواجهتها.

-٢-

حتمية الابتلاء

المصيبة العظمى والداء الويل أن يخلد الانسان ويميل بكل كيانه الى الدعة ، ويغرق في بحار اللذائذ والترف ، فيعتقد أنَّ سر وجوده في هذه الحياة وفلسفته ، هما التمتع باشباع الغرائز والشهوات ، مثله في ذلك كمثل البهيمة المربوطة التي لا همَّ لها سوى علفها.

وعندما يسود الذهن البشري الاعتقاد بأنَّ الحياة الدنيا هي الأساس والغاية ، وبنهايتها تكون خاتمة المسير والمطاف ، فلا حياة ولا نشور ، فان هذه هي المصيبة الكبرى ، ذلك لأنَّ هذا الاعتقاد يمثل الضلال المبين الذي يمت القلب ، والغشاوة التي تعمي الأبصار ، والسبب الحقيقي لمسيرة الانحراف الخطيرة في حياة الانسان ، ذلك لأنَّ الدنيا لم تُخلق ليركن إليها الإنسان ، بل إنها قامت على كدر ومشاكل ومعاناة ،

وجرت دواليبها بدفع من الجد والجهد والاجتهاد، لذلك يقول تعالى :
﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمَلَأَيْهِ﴾^١.

وبالطبع فاننا لا نريد أن نلغي التمتع بالنعم في الدنيا، بل نعني أن هذه النعم إن وُجدت فانها طارئة منقضية، وأن إحساس الانسان بالراحة والاستقرار هو حالة إستثنائية.

سر ظاهرة الموت

وفي البدء لتأمل ونمعن النظر في سر ظاهرة الموت التي هي ليست في الحقيقة غريبة وعجيبة، لأننا نعيشها ونلاحظها في كل آن، ولكن الغرابة والعجب يكمنان في سر هذه الرحلة. فقد يسأل الإنسان نفسه في هذا المجال قائلاً: ترى ما قيمة هذه الحياة التي نحياها اذا كانت تُختم بالموت؟ فما نحن نبني ونعمل وننتج ونعمر الأرض.. وإذا بكل شيء ينتهي في تلك اللحظة المخطوطة، والأجل المكتوب، لينتهي معه النزاع والتكالب على هذه الدنيا وحطامها رغما عنا. وبناء على ذلك فما قيمة هذه الحياة، وما قدر هذه الدنيا؟

وما أعظم تلك العبر والدروس والمواعظ التي علّمنا إياها أئمة الهدى عليهم السلام، وأرادوا لنا بها خير الدنيا وثواب الآخرة. فهذا هو ذا إمامنا

موسى الكاظم عليه السلام ينطق بالموعظة البليغة، عندما ينظر الى ميت قد إنشغل أهله وأصحابه باهالة التراب على جسده فيقول: «إِنَّ شَيْئاً هَذَا آخِرُهُ لَحَقِيقٌ أَنْ يُزْهَدَ فِي أَوَّلِهِ وَإِنَّ شَيْئاً هَذَا أَوَّلُهُ لَحَقِيقٌ أَنْ يُخَافَ آخِرُهُ»^١. هذا هو حال الدنيا، فالإنسان يسعى فيها ويجهد ويبني ويشيد ثم يأتي هادم اللذات فينغص عليه لذائذه، ويهدم بفأسه آماله وأمانيه.

صحيح إن هذه الدنيا لا تخلو من راحة أو تمتع بنعمة أو نشوة، ولكن يجب أن لا يغيب عن بالنا إن تلك النعم واللذائذ إن خلت من التنغيص فإن زوالها السريع هو التنغيص بذاته. ثم إننا كثيراً ما نرى أن ساعات التمتع بالنعم والملذات تتخللها - وربما تُفسدها - تلك المنغصات الطارئة أو الكامنة في النفس. فحتى في تلك الساعات التي نفرغ فيها من أداء المهمات والواجبات، ونكون فيها أحراراً من كل مسؤولية، في هذه الساعات تنطلق كوامن النفس من هواجس ووساوس وأفكار شتى، وربما تكون وساوس شيطانية، تملأ القلب وتنغص علينا ساعات الراحة تلك.

وهكذا الحال بالنسبة الى النعم واللذائذ، فإن أقل منغص لها علمك بزوالها أو زوالك عنها بعد فترة قصيرة، ثم هناك القلق والخوف

١- بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٠٣.

والتفكير في كيفية الحفاظ على هذه النعمة وحراستها.

لا حياة بدون مشاكل

وعلى هذا الأساس فإن الحياة الدنيا لا تخلو من المشاكل والمعاناة والمنغصات الكثيرة، وبالتالي فإن الانسان يخرج بنتيجة ملموسة وواقعية، وهي أن الهدف الرئيسي للانسان لا يمكن أن يتحدد في إطار هذه الدنيا، فهي ليست خاتمة المطاف، وإن أولئك الذين يغالطون واقعهم ويزعمون أن الدنيا هي الهدف والغاية هم الأكثر بلاء، والأشدّ عناء ومعاناة.

ولذلك فإن الانسان عندما يعيش الأمل بالراحة وصفاء البال وتوفر النعمة.. إذا به يواجه وابلًا من المشاكل والعثرات، فإن من الطبيعي أن يحس بعنف الصدمة النفسية، والغصة في أوج حالة التمتع والارتياح. أما إذا كان قد أعد العدة للمشاكل والصدمات النفسية والعثرات التي تعترض سبيل الراحة والاطمئنان والتّعم، فحينئذ سيكون الأمر بالنسبة إليه عادياً، وسيكون قادراً على إستيعاب تلك المشاكل والمعضلات، لا كأولئك الذين يحسبون أن الدنيا دار أنس وراحة وتمتع واستقرار، والذين ينهارون من الناحية النفسية والمعنوية لمجرد أبسط مشكلة تواجههم. ذلك لأنهم عاشوا الدنيا وهم يتصورون

الفصل الأول: حكمة الابتلاء

أنها الغاية والهدف المنشود، فتراهم لا يعيرون أذنا صاغية الى ناصح، متغافلين عن هتافات وتحذيرات الأنبياء والأوصياء.

فلنأخذ بعين الاعتبار دائماً البلايا والمصاعب ومواجهة العثرات، فإن جئتنا النعم والخيرات فرحنا بها، وإن واجهتنا الأمور التي لا تبعث على الراحة، وتسلب الاطمئنان، فانها سوف لا تكون غريبة علينا، لأننا كنا قد وضعناها في الحسبان، وأعدنا العدة لمواجهتها.

وبناء على ذلك، فلو نظرنا الى الحياة من خلال هذا المنظار المنظار الواقعي فإن في ذلك مبعث النجاح والفلاح في هذه الحياة، وفي كتاب الله العزيز نرى في كثير من آياته تأكيداً متواصلاً على حقيقة البلايا والمصائب والصراعات والمعضلات والعثرات والفتن والوساوس الشيطانية والموت ومواعظه البليغة. وعلى سبيل المثال فانه يذكر بالموت ونزوله بالانسان، ويحثه على العمل والجد والاجتهاد والسعي والانتشار في أرض الله الواسعة.. وبذلك فانه يؤكد لنا على أن هذه الحياة لم تخلق بهدف الدعة، وبلوغ الراحة.

ومن خلال هذه النظرة الواقعية الصائبة الى الحياة، يمكن للانسان السير نحو الكمال المطلق، أي نحو الله سبحانه وتعالى، ويتحوّل الى ذلك الانسان الذي يكون: «كَالْجَبَلِ لَا تَحَرَّكُهُ الْعَوَاصِفُ وَلَا تَزِيلُهُ

القَوَاصِف»^١. فالمؤمن أقوى وأكثر شموخاً من الجبل، وأصلب من الحديد، لا تنال من عزمه وهمته ولا تثبط حركته ونشاطه في الحياة عواصف الدنيا وقواصفها.

المؤمن خفيف المتاع

والمؤمن الذي يعيش هذا الواقع، نراه لا يخلد كثيراً الى الأرض. فهو خفيف المتاع. فعلى سبيل المثال: فانه يضع في حسابه الهجرة، والفرار الى الله سبحانه إن اقتضت الظروف ذلك، فتصبح الهجرة في أرض الله الواسعة بالنسبة إليه مسألة عادية لا يبالي بصعوباتها وتبعاتها. ذلك لأنَّ الهجرة هي حقيقة واقعية في التاريخ، وقد عاشها أولئك الذين سبقوه، ثم إنه قرأ هذه الحقيقة في القرآن فوجد التأكيد المتواصل عليها مما يهونها عليه، ولذلك فانه يتوقعها ويدرك أن الطريق الذي سلكه في هذه الحياة هو طريق الرسالة والايمان والجهاد يتطلب مثل تلك الظروف والتضحيات. فالهجرة هي واقع شهده التاريخ في كثير من محطاته منذ أن خلق الله تعالى آدم ﷺ، وأنزله الى الدنيا والى اليوم الموعود.

وهذه الحركة هي أحد متطلبات التغيير في الحياة، والمؤمن الذي

١- من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٥٩٣.

الفصل الأول: حكمة الابتلاء

يعيش واقع هذه الحركة نراه لا يخلد كثيراً إلى الأرض ، ولا يمد جذوراً عميقة في الماديات ، ولا يبني القصور ، ولا ينمي الاموال لينفقها في تشييد العقارات.

ومثال آخر: فان الانسان المؤمن ينظم حياته الاقتصادية تنظيمًا حكيمًا ، فهو عندما يدّخر شيئاً من المال فان ادّخاره هذا ليس من أجل الادّخار ذاته كما يفعل الكثير من الأغنياء الذين يخرجون فقراء جوعاً من هذه الدنيا رغم ما يمتلكونه من الثروات ، ورغم ما يدّخرونه. فالانسان المؤمن عندما يدّخر شيئاً فانه يخطط بذلك للمستقبل ، والظروف الصعبة التي قد يمرّ بها ، فيدّخر لحاجته في الغد حتى لا يمد يده الى أحد ، كما إنك تراه في سلوكه المعاشي معتدلاً ، لا يسرف ولا يفرط ، ويصب جل تفكيره في بناء حياة اقتصادية متوازنة.

وهكذا فإنّ القرآن الكريم يوجهنا ويعظنا مشيراً الى معضلات هذه الحياة ومعاناتها وآلامها ، والى الفتن والامتحانات التي يتعرض لها الانسان المؤمن ، فبصائرهِ تسير في هذا الاتجاه ، وتهيئهُ لكي يكون مستعداً من جميع النواحي لمقارعة الصعاب ، وتحمل المشاق والمصائب.

القرآن بيان للناس

وفي هذا المجال يقول عزّ من قائل: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾^١. بهذا الأسلوب تعطينا الآية فكرة عن أهمية الموضوع الذي سيأتي الحديث عنه، والذي يمثل حقيقة كبرى وبصيرة نافذة لا غنى لنا عنها، وهي تمس حياتنا وواقعنا. فعلى الناس جميعاً أن يتتبعوا من هذا البيان والارشاد الرباني، وهم قادرون على استيعابه، وبالتالي فإنّ الكشف عنه سيكون حجة على الناس كلهم. ومع ذلك فاننا لا نجد من يأخذ بهذه الحقائق الواضحة البيّنة، وينتفع بها إلاّ المؤمنون المتقون الذين لا تحجبهم الذنوب، ولا تغشى أبصارهم الشهوات، ولا تعمي قلوبهم الأهواء المقيّنة عند انكشاف الحقائق. ثم ينتقل السياق الكريم ليستعرض تلك الحقائق والبصائر، ويرسم آفاق النجاح، فيقول جل اسمه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي لا يحبطنكم التراجع والانهازم عند مواجهة ركام المصائب، وجمال الهموم والمعاناة، ولا تدعوها تفشل حركتكم ونشاطكم وسعيكم في هذه الحياة ومنعطفاتها. ثم وإياكم والهزيمة النفسية والمعنوية، فانها أصل كل هزيمة واندحار وفشل: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ

١- آل عمران: ١٣٨.

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ^١.

فلماذا - إذن - الوهن والفسل مادمننا ندعو الى الايمان والتوكل على الله؟ وكيف نسمح للانهيـار والوهن يسيطران على نفوسنا، في حين أن المؤمنين هم الشائحون الأقوياء الأعزاء في نفوسهم؟ ثم يعود السياق المبارك ليدخل في تفاصيل أكثر فيقول: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ^٢﴾.

هذا هو حال الدنيا، يومٌ لك ويومٌ عليك، والأيام دول بين الناس. فكما أنك تخوض الامتحان، فإنَّ عدوك يخوضه أيضاً. ولننظر الى التاريخ في هذا المجال، فكم من جبار وسلطان ووزير كانت لهم سطوتهم، يرفعون الصولجان على رؤوس الناس ويستعبدونهم ويذلونهم بالسياط والحديد والنار، ولكن أين صاروا، وأين هم الآن؟

ثم يقول تبارك شأنه: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾^٣.

وهنا تكمن حكمة الفتن والبلايا، وهذه الحكمة تتمثل في معرفة

١- آل عمران: ١٣٩.

٢- آل عمران: ١٤٠.

٣- آل عمران: ١٤٠.

أهل الايمان. فالإبتلاء هو المحك، فعند خوض المصاعب، والسير في الطرق المليئة بالأشواك، حينئذ يُعرف الايمان الحق. وعند اجتياز الامتحان بإرادة أصلب وأقوى من الجبال، وبصيرة تنفذ في الصخر الاصم، فحينئذ يمكننا أن نصف الانسان الذي اجتاز هذا الامتحان بأنه مؤمن حقاً.

من حكم الابتلاء

ثم يستمر السياق المبارك في بيان المظاهر الأخرى للحكمة من التعرض للابتلاءات، فيقول تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾. والمعنى المراد هنا قد يكون (الاستشهاد)، أي إن السياق يريد معنى أن الله سبحانه وتعالى يتلي الناس، ويعرضهم للاختبارات، فتكون المكافأة في أصعبها، فيأخذ عز وجل الفائزين الى قربهِ، ويمنحهم وسام الشهادة الرفيع، ويكرمهم بتلك الكرامة العظيمة عندما يُقتلون في سبيله.

والمعنى الآخر لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ أن ينبري من صلب المجتمع ويبرز الى مقدمته المحمَّصون الذين امتحنتهم الأحداث، ليواجهوا العواصف العاتية كالجبال السماء، ويقفوا في وجه التيارات المنحرفة، ويتصدوا لقيادة الأمة في ساحات المواجهة، والسير بها نحو

الفصل الأول: حكمة الإبتلاء

الأهداف الرسالية المنشودة.. ولعل هذا المعنى هو المراد. فمعنى القيادة والريادة هو المطلوب في الآية السابقة.

ثم يقول عزَّ من قائل: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. وللأسف فإنَّ الكثير منا يتصورون أن الله سبحانه وتعالى يحب الظالمين، ذلك لأنهم يرون بعض الظلمة قد ظلوا يتسلطون رغم المصائب التي أنزلوها في ساحة الملايين من الناس، غافلين عن سُنَّةِ إلهية جرت في العباد، وهي أن الله جل وعلا إنما يُبقي على الظالمين ليزدادوا إثماً. فلنحذر من الانحراف في المفاهيم وتغيير القيم. فهذا هو أيضاً إبتلاء إلهي لنا، ثم علينا أن لا ننسى أن لله في إرادته وسنته حِكْمًا لا ندركها إلا في وقت تجليها.

مدح الكافرين

ثم يضيف السياق مبيِّناً أسراراً أخرى للبلايا والشدائد التي يتعرض لها المؤمنون وتنزل بالكافرين، فيقول تعالى: ﴿وَلِيَمَّحَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾^١. فالكافرون عندما ينزل بهم العذاب الشديد على أيدي المؤمنين، يدمرهم ويستأصلهم. وهذا هو معنى «المحق»، أي زوالهم على أيدي المجاهدين الرساليين الذين

١- آل عمران: ١٤١.

يَحْصُونَ، ويبلون بلاءً حسناً في مثل هذه المواجهات الحاسمة. ذلك لأنَّ المؤمنين لا تخلو قلوبهم من الشوائب، فكما أنَّ الكافرين يصلون الى أعلى درجات كفرهم عند المواجهة، فإنَّ المواجهة هذه تكشف أيضاً عن أولئك المؤمنين الذين صفت قلوبهم، وخلصت نيّاتهم لله سبحانه، لأنَّ الانسان المؤمن لا يمكن أن يدخل الجنة وقلبه مشوب بتلك الشوائب. وهذه القضية ليست بالسهلة الهينة، بل هي في غاية الأهمية، والحديث الشريف يؤكدها، إذ قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ عَبْدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ»^١.

ترى من منا يمكنه الادّعاء بأن قلبه طاهر نظيف من الكبر والحسد والغل والرياء؟ لا يمكن لأحد أن يدّعي هذا الادّعاء، ولذلك فإن الخالق تبارك وتعالى جعلنا عرضة للبلايا والمصائب ليمحّصنا ويمتحننا ويكشف عن صدق ادّعاءاتنا، ليعرف مدى صبرنا وصمودنا ومقاومتنا، ثم يمهد لنا سبيلاً الى الجنة عند النجاح في هذه الابتلاءات والشدائد. ثم علينا أن لا ننسى أن هذه البلايا والمصائب والشدائد مهما بلغت، فانها ضئيلة ازاء عذاب الآخرة، وأهوال يوم القيامة.

ثمن الجنة

ثم ينتقل السياق ليؤكد على ثمن الجنة، وطريق الولوج الى عوالمها الرحبة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾^١.

فلنفكر في هذا الأمر، لأنه مرتبط بمصيرنا مادامت الدنيا في طريقها الى الفناء، ولن يكون بعدها سوى جنة تقابلها نار. فالمصائب والشدائد منتهية وزائلة لا محالة، ولكن الذي يبقى هو شعلة الايمان تضيء وهاجة، وراية العمل الصالح ترفرف خفاقة، وهما يدلان على طريق الجنة والنعيم الأكبر.

فالجنة مثلها كمثل قصر نظيف مزخرف واسع، مزينة جدرانها وقوائمه، مزخرفة سقوفه وأروقته، فيه من الأطعمة والأشربة ما تلذ به الأنفس.. وإذا بات يأتيه وعليه الكدارة والأوساخ والملابس القذرة يريد الدخول فيه، فهل يا ترى سيجد الطريق إليه مفتوحاً؟
كلّا بالطبع، فلا بد من أن يمنع الحرس الواقفون على بابه قائلين له: إذهب وتنظّف وتطهّر وغير مظهرك القذر هذا، وارقد الثياب النظيفة الجميلة.

١- آل عمران: ١٤٢.

وهكذا الحال بالنسبة الى الجنة، فانها ترفض إستقبال الانسان الملوث بألوان الذنوب، وأنواع الخطايا والسيئات. فالجنة لا يمكن دخولها بهذه السهولة والسرعة، بل هي بحاجة من أجل دخولها الى بذل الجهد والجهاد ومحاربة هوى النفس، واجتناب الخطايا والآثام، ومقاومة الشهوات، وعدم الاستسلام للوساوس الشيطانية، والعمل على تزكية النفس وتطهيرها، كما أنَّ دخولها متوقف على الصبر والصمود وبذل التضحيات الجسام.

- ٣ -

استعادة الوعي حكمة الابتلاء.

لا شك إنَّ وراء المآسي التي تتوالى على الأمم، والصعوبات والمحن التي تنتاب المجتمعات، فلسفة وحكمة، على الرغم من أنَّ البعض يزعم أن الصدفة تلعب دوراً أساسياً فيما يجري عليه. ونحن - كمسلمين - نرفض هذا الرأي، ونرى أنَّ كل شيء في هذا الكون بمقدار، فما من سكون وحركة، وضر ونفع، إلَّا في كتاب مبين. فنحن نؤمن - على سبيل المثال - بأنَّ السُّحْب لا تجري، وإنما تُزجى وتُساق من قبل إرادة مدبِّرة لها، وأنَّ الأرض لا تنبت وإنما تُزرع، وأنَّا لسنا نحن الذين نزرع، بل ان الله جل وعلا هو الزارع، وأنه لن يصيب الانسان إلَّا ما كُتب له.. وبالتالي فإنَّ السُّنن الالهية والتقديرات الحكيمة، هي التي تُجري مقادير الكون الذي نعيش نحن فيه، ونعد جزءاً منه.

ضرورة وعي الأحداث

وبناءً على ذلك ، فإنّ علينا أن نتساءل عن أسباب الحوادث التي تجري حولنا وعلينا ، لأنّ الصدفة لا يمكن أن تلعب دوراً في تسبب تلك الحوادث. فليس من الصدفة بمكان أن يأتي الطغاة الظالمون ليتحكّموا في مصائر بلداننا وشعوبنا. فقديماً أبتلي العراق - على سبيل المثال - بالحجّاج ، ويزيد ابن أبيه ، وقديماً أبتلي الايطاليون في الزمن الغابر بطاغية مثل نيرون ، وقديماً نزلت القوارع على الأمم من أمثالنا فأبيدت ، واغرقت ، واحترقت.

إنّ تلك الأحداث وغيرها لم تقع صدفة ، لذا علينا أن نسأل أنفسنا ما هي البصيرة من وراء ذلك ، وما هي العبرة ، وكيف نستطيع أن نفهم الحياة الفهم اللائق بها؟

أقول : إنّ من الجيد أن يفكر الانسان في هذه الأمور ، وأن لا يجبس تفكيره في أطر ضيقة ، لأنّ التفكير في قضايا صغيرة وتافهة ليس من شأن الانسان. فمن المفروض فيه أن يفكر ويعتبر ويخطط لمستقبله ، ويتطلّع الى الأفضل. فماذا ينفعه أن يصبّ تفكيره على القضايا الهامشية ، في حين يعيش حالة التغافل عن إنسان طاغية يتحكم في مصيره ويسلبه إراداته ، ويسومه الخسف والهوان؟

حكمة المآسي

وهنا نعود لنتساءل: ما هي حكمة المآسي التي تتوالى على البشرية؟
في آيات عديدة من القرآن الكريم يكشف لنا الله تعالى عن هذه
الحكمة. ونحن اذا تدبرنا في هذه الآيات، واستوعبنا تلك الحكمة،
وطبقناها على أنفسنا، ولم ندع المآسي تتكرر، فاننا سنعيش أحراراً
في دنيانا، مستقلين عن أية قوة داخلية أو خارجية تريد أن تستعبدنا.
ومن أبرز الحِكم في مآسي الأمم، دعوة الله عز وجل الانسان أن
يعود إليه. فالله يحب البشر، ويجب أن يعود عباده إليه، ولذلك فانه
ينزل عليهم المآسي والمحن لعله يستيقظ من غفلته. وقد روي عن
الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا غَتَّهُ
بِالْبَلَاءِ غَتًّا، وَثَجَّهُ بِالْبَلَاءِ ثَجًّا، فَإِذَا دَعَا، قَالَ: لَبَّيْكَ عَبْدِي، لِنِّ عَجَلْتُ لَكَ مَا
سَأَلْتَ إِنِّي عَلَى ذَلِكَ لَقَادِرٌ؛ وَلَئِنْ أَدَّخَرْتُ لَكَ، فَمَا أَدَّخَرْتُ لَكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ».
وهكذا فإن من جملة الحِكم أن الخالق جلّ شأنه يريد من عبده
أن يدعوه، وأن يتضرع إليه. فالله تبارك وتعالى يتحبب الى العباد،
وهناك منهم من يستجيبون الى هذا التحبّب، فيتضرعون الى خالقهم.
فان كان الانسان يتمتع بكل شيء من طعام وشراب وما الى ذلك،

١- الكافي، ج ٢، ص ٢٥٣.

فانه سوف لا يجد في نفسه دافعاً أساسياً حتى الى العبادة ، فيستبدّ به الغرور. أمّا إذا أصابته مصيبة ، فان قلبه سينكسر ، وسيدعو الله جل جلاله بلسان التوسل والتضرع.

وفي هذا المجال يقول أمير المؤمنين عليه السلام : «أَخْبَرَنِي حَبِيبِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله أَنَّ جَبْرِئِيلَ عليه السلام نَزَلَ إِلَيْهِ وَمَعَهُ مَفَاتِيحُ كُنُوزِ الْأَرْضِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! السَّلَامُ يُقَرِّبُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ: إِنَّ شَيْئًا صَيَّرْتُ مَعَكَ جِبَالَ تِهَامَةَ ذَهَبًا وَفِضَّةً، وَخُذْ هَذِهِ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ الْأَرْضِ وَلَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ حَظِّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ: يَا جَبْرِئِيلُ، وَمَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: الْمَوْتُ. فَقَالَ: إِذَا لَا حَاجَةَ لِي فِي الدُّنْيَا. دَعْنِي أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا، فَالْيَوْمَ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ أَتَضَرَّعُ إِلَى رَبِّي وَأَسْأَلُهُ، وَالْيَوْمَ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ أَشْكُرُ رَبِّي وَأَحْمَدُهُ. فَقَالَ لَهُ جَبْرِئِيلُ: وَفَّقْتَ لِكُلِّ خَيْرٍ يَا مُحَمَّدٌ»^١.

إنّ الانسان الذي يجيء شبعه بعد جوعه ، فانه يشكر الله تبارك وتعالى. أما الانسان الذي لم يذق في حياته الجوع ولو لمرة واحدة ، فانه سوف لا يحس بأن هناك جائعاً على الأرض ، وبالتالي فانه سوف يطغى ويستكبر عن عبادة الخالق. ولذلك فان الانسان لا يشكر ربه - عادة - على النعم العظيمة التي أنعم بها عليه.

الفصل الأول: حكمة الابتلاء

ومن حكمة المآسي على الشعوب، أن سلبياتها تتراكم طبقة على طبقة، وظلاماً فوق ظلام، وإنحرافاً أيديولوجياً، وشذوذاً في العادات والسلوكيات، وإنحرافاً في الاخلاق والآداب والمفاهيم، وتشوشاً في الرؤية، وفوضى في النظم السياسية والاقتصادية والقضائية وغيرها.. فاذا بهم يعيشون في شرقة الانحرافات، وزنزانة الفساد. وفي هذه الحالة لا تنفعهم نصيحة الناصحين، ولا عبر ودروس التاريخ، ولا تلاوة القرآن والروايات.. فتراهم يركضون وراء المادة، فان لم يجدوها حملوا على ظهورهم همّها.

وفي هذه الحالة فان الله عز وجل، وطبقاً لحكمته يعرّض هذه الشعوب للبلاء. ويشتد هذا البلاء، ويتدرج في العنف والقسوة، حتى ينتهي بهم الأمر إلى الوقوع في البأساء والضراء، فيجعل الله سبحانه بأسهم بينهم، فيقتلون بعضهم البعض، ويتسلّط عليهم أراذلهم وحقراؤهم.

هدف الابتلاء

وفي كل مرحلة من مراحل البلاء يكون الهدف هو اليقظة، أي أن يستيقظوا، وينتقدوا أنفسهم، ويعودوا الى رشدهم، ويعترفون بخطأهم وانحرافهم، ليعودوا الى الله جل وعلا، والى القيم الحقّة،

والصراط المستقيم، وينعموا في الحياة الدنيا والآخرة. فان لم يصلوا الى هذا المستوى، فان الخالق سوف ينزل عليهم بلاءات أخرى أشدّ، حتى تحين فرصتهم في الاعتبار من هذا البلاء. وحينئذ يفتح الله تعالى عليهم أبواب الرحمة، وإذا بهم بعد ذلك يفرحون، ويعلمون في الأرض، ويعيشون فيها الفساد، وعند ذلك يأخذهم الخالق بأشدّ البلاء.

فعلى سبيل المثال: ابتلى الله فرعون وقومه بسبع بلايا، فكانوا كلما تأتيهم آية يقرّرون العودة الى بارئهم، وبمجرّد أن تنتهي يعودون الى غيّهم وعدوانهم. وحينها كانوا يذهبون الى موسى ويقولون له: يا موسى، أدع الله أن يرفع عنّا هذا البلاء، فاننا عائدون الى دينه. وما كان من هذا النبي الكريم إلّا أن يتوجه بالدعاء الى الخالق ليرفع عنهم البلاء، فيستجيب الله لدعوته. ولكنهم سرعان ما يعودون الى سابق عهدهم. وفي نهاية المطاف أغدق الله عليهم بالنعم والخيرات، ففرحوا واستبدّ بهم الغرور، وعلوا وطغوا. وحينئذ أخذهم سبحانه أخذ عزيز مقتدر، ونبذهم في اليم فانتهوا وانقضوا، وأصبحوا عبرة لمن يعتبر.

إستعادة الوعي

وما يصيبنا اليوم - نحن المسلمين - هدفه وحكمته أن نستعيد وعينا، وأن نقف موقف الناقد من أنفسنا، وأن نسأل أنفسنا: لماذا هذه الابتلاءات؟ فان انتبهنا، واستيقظنا، وعُدنا الى رشدنا، رفع الله تعالى عنا البلاء. وإن لم نفعل ذلك، فإنّ هذا البلاء سوف يزداد، وستأتي مراحل شديدة وصعبة إذا لم نتَّعظ.

وفي هذا المجال يقول عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^١.

إنّ الأمم السابقة لم تتضرع، ولم تعد الى الله، ولم تطبق حكمة الابتلاء في حياتها، وبدل أن ينقذوا أنفسهم، ويستعيدوا وعيهم، وينتفعوا من المآسي، تكرّست السلييات في أنفسهم، لأنّ قلوبهم كانت قاسية. والقلب عندما يقسو، فان المواعظ البالغة، والابتلاءات

الشديدة لا يمكن أن تنفع معه.

وعلى الرغم من التذكير والابتلاءات المتواصلة، فانهم نسوا التحذيرات الالهية، فكانت النتيجة أن استدرجهم الله سبحانه وتعالى بالنعم حتى قطع دابرهم، وأهلكوا عن آخرهم. فأين عاد، وأين ثود، وأين أصحاب الأيكة وقوم لوط؟ لقد انقضوا جميعاً، ذلك لأنهم ظلموا أنفسهم. فالله أتاح لهم الفرص الواسعة، وفتح أمامهم الطريق للعودة، ولم يبادرهم ويياغتهم بالعذاب.

ويبقى هنا السؤال المهم: بعد هذه المآسي والويلات والابتلاءات التي توالى وتتوالى علينا بين الحين والآخر، هل انتفعنا منها وأخذنا الدروس والعبر؟ وهل أدرك الناس أنَّ التشرذم، والتفكير المصلحي الخاص لا يمكن ان ينفعهم؟ وهل أعادت مؤسساتنا النظر في إستراتيجياتها، وفي أسلوب عملها وتحركها؟ وهل قمنا بما كان ينبغي لنا أن نقوم به؟

إن علينا أن نقف وقفة شجاعة مشرفة لنعرف ماذا فعلنا. ففي كثير من الأحيان يكون النقد البناء، ومراجعة الماضي، وإعادة النظر في المسيرة، من صميم العمل الرسالي، ومن صميم واجبات ومسؤوليات الانسان كإنسان، فما بالك بالقيادات، والعلماء،

والمفكرين ، والطلائع الرسالية؟

الى متى الهزائم؟

إنَّ المهم في كل ذلك أن نتضرع الى الله جل جلاله ، وأن نعود إلى أنفسنا ، ونتساءل عن الخطأ في سلوكنا وفكرنا وبصيرتنا ووعينا .
ومن العجيب في هذا المجال أننا نرى البعض يفتخرون بالهزائم ، في حين أن الناس يبحثون عادة عن إنتصار لكي يربطوا أنفسهم به .
ولكن البعض منّا تراه يبحث عن هزيمة ليتوقع وينطوي على نفسه في داخلها ، ويصبّ كل تبريراته في إطارها ، ويزعم أنَّ مصيرنا أن ننهزم وننهزم دون أن نستطيع تحقيق أي إنتصار . في حين أن المثل المعروف يقول : «الهزيمة يتيمة» ، ولكننا نرى أن هزيمتنا لها ألف أب وأب . الأمر الذي يدلّ على شدة فقرنا الفكري ، وانعدام الوعي بالبصائر القرآنية .
مما لا ريب فيه إن الله تبارك وتعالى عادل ، عندما يصيبنا بذنوبنا ، ويوجّه إلينا الصعقات القوية التي لم تصل لحد الآن الى المستوى الذي نصحو فيه على واقعنا . فعلى الرغم من المآسي والمصائب والويلات والحن التي نزلت علينا ، فاننا ما نزال نياماً . ونحن نعوذ بالله تعالى من أن تنطبق علينا الآية الكريمة التي تقول : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ .
فمن الخطأ أن نتصور إن هذه الآية تنطبق على الحكام الظالمين

وحدهم. فالإنسان الذي يترك العمل في سبيل الاسلام، ويضع مصالحه فوق مصالح الأمة، والذي يثير الخلافات في وقت نحن أحوج ما نكون فيه الى الوحدة، والذي يعيش في زنزانة ذاته الضيقة، هو أيضاً إنسان ظالم. ولذلك فانا ندعو الأمة الى أن تتعظ من المصائب والابتلاءات، وأن تكون في مستوى المرحلة التي تعيشها.

-ع-

الضراعة هدف الابتلاء.

الفطرة هي أكبر رأس مال يمتلكه الانسان في الحياة ، فهذه الفطرة هي التي تكشف للانسان الحقائق ، وتجعله ينسجم مع طبيعة الكون والنفس ، فيتفاعل بهما ومعهما. ولكن هذه الفطرة التي لا بد أن تقوم بدور المنسق بين الانسان والطبيعة من حوله تتعرض للرّين ، لأنَّ حُجُب الشهوات والأهواء والتراكمات السلبية تفصل بينها وبين إدراك الحقائق. فقد تتحول هذه الفطرة الى فطرة تحجبها الأهواء والشهوات ، فتفقد القدرة على الكشف ، ولا تستطيع أن تقوم بدورها الأساسي في تبصير الانسان بالحقائق.

سبب جميع المآسي

والانسان عندما ينظر بفطرته، وطبيعته الأولية الى الأشياء، فإنَّ حياته ستكون حياة قائمة على أسس حضارية تحمله خطوة فخطوة الى الأمام وبصورة مستمرة. وإذا ما استُبعدت الفطرة فإنَّ كل سعي الانسان، وكل حركة له سيكونان باتجاه معاكس، أي إتجاه التخلف والتقهقر بدلاً من التقدم.

وإذا أردنا أن نبيّن بكلمة واحدة سبب تخلف الانسان، وسبب المشاكل المتراكمة عليه، لا بد أن نقول ان تلك الفطرة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في ذات الانسان قد تغيرت وانقلبت واحتجبت بالشهوات. وهذا هو تعبير موجز عن جميع المآسي التي يتعرض لها الانسان.

وعلى سبيل المثال، فان الانسان الذي ينظر الى الأمور بفطرته، يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل بصورة طبيعية. صحيح إنه لم يزود بالقدرة على إستشراف الغيب، ولكنه قد مُنح البصيرة الكافية لتنسيق حياته، ودرء الأخطار عن نفسه، ولذلك فان الشعور بالألم وُضِع للدلالة والاشارة الى وجود المرض في الجسم.

وهكذا الحال بالنسبة الى الحياة الاجتماعية، فظهور الفوضى

الفصل الأول: حكمة الابتلاء

في المجتمع يشير الى قربهِ من المأساة، والوقوع في مستنقع المشاكل الاجتماعية. فمشكلة الفقر، والعنصرية، والرأسمالية، والمشاكل الأخرى على الصعيد الاجتماعي تترك آثاراً واضحة تبين للانسان أنَّ هذا المجتمع يسير في اتجاه منحرف، وبالتالي فانها تمكنه من اكتشاف الخطأ في الوقت المناسب ومعالجته قبل الاستفحال.

وعلى سبيل المثال، فإنَّ السياسي الذي لا يستطيع أن يفهم ضمير مجتمعه، لا يمكنه أن ينجح في قيادة هذا المجتمع، والرئيس الذي لا يدرك معنى الاضطرابات في بلده، ومعنى أن يعيش شعبه في حالة الغليان والثورة، لا يمكنه أن يستمر في حكمه. فلا بد أن يكتشف أن المجتمع يعيش في حالة غير صحية، وأنَّ من الممكن أن ينقلب عليه الأمر. والسيطرة على هذه الاضطرابات، وتهدئة الأوضاع بحاجة الى وجود حالة من الانسجام بين فطرة الحاكم، وبين طبيعة الأوضاع الاجتماعية السائدة في بلده.

وبناءً على ذلك فان الفطرة هي طبيعة الانسجام بين الانسان والطبيعة، واذا كانت الحُجُب متراكمة على هذه الفطرة فانها ليس لا تنفع الانسان فحسب وإنما تضره، لأنَّ هذه الحجب بإمكانها أن تنفذ الى عمق الفطرة، وتقلب رؤية الانسان.

والتخلف الذي مُنيت به الأمة الإسلامية اليوم، هو نتيجة الحُجُب المتراكمة على فطرة أبنائها. ففطرتنا ليست تلك الفطرة التي خلق الله تعالى الناس عليها، ولا تمثل تلك المواهب التي أودعها الله عز وجل في الانسان، والمقاييس والمعايير التي وضعها في قلبه والتي لا بد ان تقوم بدور المنسق بين الانسان والطبيعة من حوله. فتلك الفطرة والمواهب والمقاييس قد انحرفت، ولم تقم بدورها الطبيعي، ولذلك نرى أن أمتنا تزداد تخلفاً يوماً بعد آخر، ولا تستطيع أن تقوم بأيّ دور بناء.

عبادة الماضي سبب التخلف

ومن جملة عوامل وأسباب التخلف عبادة الماضي، والافتخار الكاذب به. فالمجتمع الذي يقلد ماضيه، ويفتخر به بكل ما فيه من ايجابيات وسلبيات، هذا المجتمع يكون عاجزاً عن القيام بأيّ دور، لأنه ينظر الى الحياة من حوله بمنظار الماضي الذي أكل الدهر عليه وشرب. ولذلك فانه لا يستطيع أن ينسق حركته، فتراه يفسر كل شيء وفق المقاييس السابقة، وهذه مشكلة كبيرة يعاني منها الانسان.

وهكذا فان الذي يريد أن يعالج الأوضاع الحالية من خلال العهود السابقة التي كانت لها ظروفها وملابساتها وقيمها الخاصة بها، لا يفهم مدى التطور الهائل الذي حدث في عالمنا اليوم والذي يحدث

بين لحظة وأخرى ، فكيف بين سَنَةٍ وأخرى ، وبين مرحلة من الزمان ومرحلة أخرى؟ فالذي يريد أن يسير على حرفية الكلمات التي تفوّه بها المفكرون الاسلاميون قبل عشر سنوات أو خمسة عشر سنة لا يستطيع أن يقرأ لغة العصر ، ويعجز عن أن يكيّف تصرفاته وفق الحاجات المتجددة لهذا المجتمع أو ذاك.

إثارة الفطرة حكمة الابتلاء

وعلى هذا فان مشكلة الانسان منذ أن خلقه الله عز وجل وحتى يومنا هذا هي مشكلة إبتعاده عن فطرته ، ومحاولته أن ينظر الى الحياة من زوايا جانبية لا بشكل مباشر. فمشكلة الانسان في عصر نوح عليه السلام وعاد وقوم ثمود هي مشكلة اليوم ، وهي مشكلة كبرى. فلقد زوّد هذا الانسان بمقياس واحد لكي يكتشف الحياة من حوله ، ألا وهو العقل والفطرة. فاذا ما انسحب العقل من العمل ، وتغيّرت الفطرة ، فماذا يبقى للإنسان؟ لا يبقى له حلّ سوى أن ينسحب هو بدوره.

وعلاج هذه المشكلة هو علاج إلهي من خلال إبتلاء الانسان بالمصائب والمآسي. فالحكمة منها هي إثارة فطرة الانسان ، وإعادته الى حالة نقائه وطهره. وبتعبير آخر ، الى نقطة البداية التي لا بد أن يبدأ منها ، من خلال إزالة الحجب التي حالت دونه ودون استيعاب

الحقائق.

وفي هذا المجال يقول عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾* ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ* وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ* أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ* أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ* أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ*^١

فهذه الآيات الكريمة تصرح بأن الهدف من أخذ الناس بالسراء والضراء هو أن يضرَّعوا، والضراعة هي أن يعود الانسان الى حالته الطبيعية والفطرية. وعلى سبيل المثال، فان السياسي ينظر الى الحياة من خلال سياسته، والمتقف لا ينظر الى الحياة إلا بمنظار ثقافته، ولكن هذا الانسان لا بد أن يعود الى الضراعة، والى حالته البشرية واستكانته الى الله سبحانه وتعالى، وازالته لكل العوائق التي تمنعه من الوصول الى القمة.

وهناك الكثير من الأمم التي تنتفع من الضراعة، وهي عادة الأمم

١- الأعراف: ٩٤-٩٩.

الفصل الأول: حكمة الابتلاء

التي أصيبت بمشاكل وأزمات سياسية وإجتماعية وحضارية. ولكن البعض من هذه الأمم لا يستفيد حتى من المأساة التي تهز الضمير، وتكشف عن فطرة الانسان، ولأنهم وصلوا الى هذه المرحلة من قسوة القلب، فقد جاء الأمر الإلهي بانزال العذاب عليهم، ومحوهم من الوجود:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^١.

وهكذا فقد اكتسبوا السيئات، فرسمت هذه السيئات المقياس الذي كان لابد أن يكشف لهم عن حقيقة الحياة. فالمآسي والمصائب لم تعدهم الى طبيعتهم، فكانت النتيجة أن انتهوا بكارثة طبيعية نتيجة عدم اعتبارهم بالمأساة.

وللأسف فإن بعض الناس في مجتمعاتنا ما يزالون غير مدركين لمغزى ما جرى ويجري عليهم، فلم يفسروا الأحداث التي مرت بهم تفسيراً قرآنياً صحيحاً. وأنا عندما أقول: (بعض الناس) فاني لا أقصد أناساً بعيدين عنا، بل نحن أنفسنا، بسبب تراكم سلبيات الماضي علينا، واحتجاب فطرتنا عن الحقائق، فلم نكتشف الدرس الذي لا بد أن نكتشفه، والعبرة التي لا بد أن نأخذها في مجال الحياة الاجتماعية.

١- الأعراف: ٩٥.

لقد مرت أعوام طويلة والعالم الاسلامي ممزق ، والمآسي والمشاكل والأزمات السياسية والاجتماعية تتراكم علينا ، فلا نتخلص من مأساة إلا لنقع في شرك مأساة جديدة ، ولا ننجو من حاكم ظالم إلا لنقع في حبائل حاكم ظالم آخر.. والمشكلة ليست في وجود المآسي ومعاناتنا منها ، بل إن المشكلة هي عدم فهمنا للعبرة منها. فهذه المآسي التي تتكرر علينا لم تعطنا الدرس المناسب ، وهو أن نعود الى فطرتنا ، والى حالة الضراعة.

حقيقة الضراعة

إن الضراعة تعني في حقيقتها أن نغير أنفسنا ، وأن نستعد لإعادة النظر في تاريخنا ، وبنائنا الفكري والثقافي والسلوكي والاجتماعي والسياسي. ولكن للأسف فإن كل تلك المآسي لم تعطنا الدرس المناسب والكافي ، فلماذا لا نحتكم الى القرآن الكريم وهو الذي يهدينا سواء السبيل في هذا المجال من خلال الآيات السابقة التي تقرّر أن الحكمة من المصائب والمآسي التي تنزل على الانسان هو أن يستشعر حالة الضراعة الى الله تبارك وتعالى؟

وعلى هذه الأساس فإن مشكلتنا الرئيسية هي أننا لم نستفد من الدروس القاسية التي مرّت بنا ، ولم نفهم الحكمة الالهية من الضراعة

الفصل الأول: حكمة الإبتلاء

الناجمة من البأساء والضراء. ورغم أننا نؤمن أنّ علينا أن نعيد النظر في تاريخنا وأشخاصنا وفي كل شيء يحيط بنا، إلا أننا ما نزال نعيش في قمة المآسي والمشاكل. والمصيبة أننا ننسى كل هذه المآسي لنعيش في أفقنا الضيق، وننظر الى كل هذا العالم الرحب الواسع عبر ثقب ضيق للغاية. في حين أن الله جل وعلا خلق لنا هذه السموات الواسعة والمظاهر الطبيعية التي لا حصر لها.. ومع ذلك ترانا نهرب من الطبيعة، ومن الحقائق، ونحصر أنفسنا في زاوية حادة.

فلنعد الى القرآن الكريم الذي يطلب منا أن نعيد النظر في بنائنا الاجتماعي والفكري والسياسي، فلا بد من أن نعود إليه وإلى حكمه ونكتشف بصائره في الظروف المتأزمة التي يمرّ بها الانسان. ثم لنتضرع الى الله سبحانه وتعالى عبر الادعية التي من شأنها أن تعيدنا الى فطرتنا، وإلى فهم السبب الحقيقي لمآسينا، وإسقاط الاعتبار المزيفة، وتحطيم الأصنام التي تحجبنا عن الحقائق. فلنقرأ القرآن بتدبر ولندرس من خلاله واقعنا، ولنقرأ الأدعية بتأمل لندرس أنفسنا من خلالها، وليحاول كل واحد منا أن يعيد بناء نفسه ومن حوله، فالمأساة هي أعظم مدرسة لنا في الحياة، فمن يدخل مدرسة الحياة فانه سيكون في غنى عن أي أستاذ آخر.

-٥-

تزكية النفوس مراد الابتلاء

من الظواهر السلبية في حياتنا إنّ أغلب الناس منصرفون الى هموم الدنيا ، وشؤون المعاش من مأكّل وملبس ومتع ولهو ولعب ، غير ملتفتين الى علة وجودهم وحياتهم على هذه الأرض ، ولا أبهين بغاية هذا الوجود ، فقلّما نجد أولئك الذين يسائلون أنفسهم عن تلك العلة والغاية ، وما تنطويان عليه من حقائق تنظّم الحياة ، وتعبّد طرقها على أساس ذلك الفهم والادراك .

فلا بدّ أن يكون هناك هدف وغاية من وجودنا ، وتركيبنا بهذه الهيئة التي نحن عليها ، بل إنّ الغائيّة والهدفية تعمّان كلّ صغير وكبير في أبداننا وأحاسيسنا . فأعضاء جسد الإنسان لم تُخلق ولم ينعم بها الإنسان إعتباطاً وعبثاً ، بل لها أهداف تجتمع في بؤرة هدف واحد ،

هو الهدف الرئيس من الوجود.

هَدَفِيَّةُ الوجود تشمل كل شيء

وهَدَفِيَّةُ الوجود لا تقتصر على الإنسان وحده ، بل إنها تمتدّ الى كل شيء صغير وكبير في الطبيعة. فليس هناك شيء مخلوق دون هدف ، وحاشى لله أن يصدر منه ذلك ، وحتى المخلوق الذي فيه الضرر والفتنة للإنسان فإنه ضروري لإصلاحه.

ويبقى من حقّ كل إنسان أن يسأل عن هذا الهدف ، وسرّ الظواهر التي تحيط به ، فهذا السؤال هو السؤال المهم الذي له صلة وثيقة بأوضاعنا التي نعيشها اليوم ، والتي هي أوضاع خطيرة وحساسة يعجب منها الناس لأنهم يجهلون أسبابها وأسرارها والحكمة من ورائها ، فلو عرفوها بطل العجب وزالت الحيرة عندئذ.

الفتنة.. هدف أساس

وهكذا فإنّ المهمّ أن نعرف ما هو الهدف من وجودنا وحياتنا أولاً ، وكيف نتحرّك في إطار هذا الهدف ثانياً كي لا يستبدّ بنا العجب. والجواب على السؤال الأوّل يتلخّص في كلمة واحدة صريحة هي : الفتنة التي هي باطارها العام الهدف الأساسي من خلق الإنسان فوق

الفصل الأول: حكمة الابتلاء

هذه البسيطة ، وربما جهلت ملائكة السماء أمر الخلقة الإلهية للإنسان ، والارادة الربانية من وراء إهباطه على الأرض ، ومنحه نعمة الارادة والحرية والاختيار بعد أن يجد أمامه أسباب الاستقامة ، وأسباب الانحراف ، ويرى بعينه ، ويدرك بعقله سبل التقوى والرفعة والنبيل مقابل سبل المعصية والانحطاط ، ليختار ، ويعمل إرادته وحرية. فالملائكة جهلت سرّ أمر الارادة الإلهية في هذا الخلق ، فما عرفوه أنّ هذا المخلوق من شأنه الإفساد ، وسفك الدماء فحسب كما روى لنا ذلك الخالق تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^١.

الآثار الإيجابية لمعرفة الهدف

وبمعرفة الهدف وادراكه والتكيف معه ، نعرف كيف نتعامل مع هذا الهدف ، وبالتالي فاننا سنقترب من الحكمة الإلهية التي اقتضت لنا تلك الهدفية في الحياة ، أي الفتنة والتمحيص والابتلاء ، وبذلك يكتمل الإيمان فينا ، فنعيش الطمأنينة والسكينة وراحة النفس والبال والضمير. وهذه هي سمات المؤمنين بالله حقاً ، فلأن المؤمنين يعون

١ - البقرة: ٣٠.

جيداً هذه الهدفية في الحياة، فإنك تراهم في سكن وطمأنينة وراحة في نفوسهم وضمائهم، فاذا ما مُحْصوا بالفقر وجدوا الله تعالى عندهم فاطمأنت قلوبهم، وهدأت نفوسهم بذكره وحمده وتسيحه وشكره على نعمائه، وإذا ما أصابتهم مصيبة الموت في عزيز أو قريب عندهم لجأوا الى ربهم، فقد كيّفوا أنفسهم مع البلاء والابتلاء، وخبروا الفتن والمصائب بكل ألوانها وأنواعها، وارتضوا لأنفسهم ما قدّر الله سبحانه وقضى لهم وعليهم. وهذه من قوانين الله في عباده ومخلوقاته في الوجود، فالؤمن يكيّف نفسه، ويجعلها تنسجم مع المقتضيات والسنن الإلهية.

تأثير الابتلاء على النفس المؤمنة

وهناك سؤال آخر يثار في هذا المجال وهو: ما هو تأثير الإمتحان والفتنة على النفس المؤمنة، وكيف نحقق في أنفسنا وحياتنا فلسفة وحكمة الفتنة والابتلاء؟

إن تأثير الامتحان والتمحيص على الإنسان قد يكون سلبياً وقد يكون ايجابياً، ولذلك قيل: «عند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان». فعندما يُسأل الإنسان عن مدى خبرته في عمل ما، فانه لا يتردد في الجواب الايجابي وإن كان جاهلاً، وهذه هي طبيعة الإنسان المتمثلة

الفصل الأول: حكمة الابتلاء

في عدم إقراره بالجهل ، ولكن أمره سرعان ما يفتضح عند الاختبار ،
وحينئذ سيفهم هذا الإنسان حقيقة نفسه فيضطر حينئذ الى إصلاحها .
وللأسف فإن البعض ممن يهرب من عيوب نفسه ، ويخشى ظهورها
على حقيقتها ، نجده يتهرب من مواقع التمحيص كالذي يكره المرأة ،
ويودّ تحطيمها لأنها أظهرت له عيباً في وجهه لم يكن قد التفت إليه
لولاها . ولكي نبرهن على واقعية إيماننا علينا أن نعشق المرأة ، ونلجأ
إليها دائماً كي نطلع على عيوب أنفسنا ، ونعتمد الى إصلاحها . ومرآتنا
تتمثل في إخواننا المؤمنين ذوي الألباب ، فبنصحهم وصلاهم تصلح
مسيرتنا ، وتنجلي البقع السوداء من قلوبنا ، فقد تحسّ أن في قلبك نقاطاً
سوداء يجعلها الناس فيك ، وربما يتوفّك الموت دون أن يعلم أحد بها ،
ولكن عليك أن لا تنسى أن الإنسان لا يحاكم لوحده يوم القيامة ، بل
إن الملايين قد تُحاكم كمجموعة واحدة في يوم الحشر الرهيب ، وهناك
تفتضح النفوس ، وتنكشف حجب القلوب ، ولذلك جاء في الدعاء
بشأن هذا الموقف الرهيب : «اللَّهُمَّ وَإِنِّي بِكَ مُؤْمِنٌ وَبِجَمِيعِ أَنْبِيَائِكَ،
فَلَا تَقْنِي بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ مَوْقِفاً تَفْضَحُنِي بِهِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، بَلْ قْنِي
مَعَهُمْ وَتَوْقْنِي عَلَى التَّصْدِيقِ بِهِمْ»^١.

١ - من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٥٨٨.

من هنا كان الأجدر بنا أن نظهر حقيقة ما في قلوبنا وأنفسنا قبل أن يفتضح أمرنا في يوم الخزي الأكبر. فلنعرض حقيقة أنفسنا، ولنبدأ باصلاحها بعد التوكّل على الله سبحانه، ولندعُ لإصلاح أنفسنا في كلّ ساعة وفي كل حال نحن فيه.

واصلاح النفس يكون بالالتزام بركنين من الأخلاق، الاجتناب، والتمسك. إجتنب الأخلاق السلبية السيئة، والتمسك بالأخلاق الايجابية الفاضلة. فالى متى نظلّ نعيش أخلاق السلب، ونتعامل بها مع الآخرين، فتزيدنا ذنوباً الى ذنوبنا؟ والى متى يبقى الحسد، والكبر، والبغض متأصلاً في قلوبنا، ومتراكماً عليها؟ فمثل هذه الكدورات، والعيوب التي تسود قلوبنا وتميتها ينبغي أن ندعو الله لازالتها. فلنحذر الشيطان ومكائده، والتي منها أنه يصوّر لنا أنفسنا بأحسن صورة، فيجعلنا نرضى عنها، ونقتنع أنها منزّهة زكية.

الابتلاء غاية الحياة

ومن كلّ ذلك نستنتج أن غاية الحياة والوجود هي الابتلاء، ومدى تحمّله، والصبر عليه، ومن ثمّ الاستقامة والثبات في السير نحو الهدف التكامليّ للحياة. فحين الابتلاء يعرف الإنسان المؤمن نفسه ويعرف قيمة أخيه المؤمن، وقد قيل في الحكم: «عند الشدائد تعرف الاخوان».

فالبعض قد تجد منه الطيب والنبيل في لسانه، فيعذك بالاخلاص، وتشمّ من كلامه معك روح التفاني والتضحية، ولكن حين الشدة والصعاب لا تلقى منه أدنى شيء مما لقيته في لسانه حين الرخاء واليسر، وربما تلمس منه الكذب في ظروف أخرى غير الشدة وذلك عندما يرتقي منصباً، أو يصبح ذا مال وفير بعد فقر أو غير ذلك مما يُظهر معدن المرء على حقيقته.

وهكذا فبالتمحيص والابتلاء والفتنة يُعرف المؤمنون الصادقون، والرجال الصالحون المخلصون، والمجاهدون حقاً في سبيل الله، وإلا فإن الدين والايان في السراء ليسا إلا لعقاً على الألسن كما قال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ^١. فبالتمحيص يتميّز الخبيث من الطيب، والمؤمن حقاً من المنافق.

هدفية الحياة في القرآن

والآن نتناول موضوع الهدفية في الحياة من خلال الآيات القرآنية التالية المقتطفة من سورة الأحزاب. قال الله تعالى:

١- العنكبوت: ٢-٣.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ لَيْسَ لَ الصِّدِّيقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾^١.

الأنبياء طليعة الخلق

السياق القرآني هنا يتعرض للعهود والمواثيق التي أخذت على أنبياء الله وخاصة أولي العزم منهم. فالأنبياء والرسل هم قادة الأمم على مرّ الدهور السابقة، فهم طليعة الخلق، ولذلك لم يكن العهد الذي أخذ منهم عهداً هيناً وسهلاً، بل كان عهداً غليظاً - كما عبّر عنه القرآن -

يليق بمقامهم كأنباء ورسل يقودون الأمم نحو التكامل الانساني.
ثم ينتقل السياق لبيان علة أخذ الميثاق، فيقول تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ...﴾. فالإنسان الصادق إنما يظهر صدقه عندما يفتن ويمحّص فيتبين إذا ما كان صادقاً حقاً أم لا، وقد جاء التأكيد على هذا التمحيص في الحديث الشريف المروي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، حيث قال: «لَا تَغْتَرُّوا بِصَلَاتِهِمْ وَلَا بِصِيَامِهِمْ، فَإِنَّ الرَّجُلَ رُبَّمَا لَهَجَ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ حَتَّى لَوْ تَرَكَهُ اسْتَوْحَشَ، وَلَكِنْ اخْتَبِرُوهُمْ عِنْدَ صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ»^١. فهوية الإنسان المؤمن تتجلى بصدق الحديث، ومدى ادائه للأمانة.

ثم يستمر السياق الكريم مذكراً للمؤمنين بما أنعم الله عليهم في أيام الشدائد، وساعات المواجهة الأولى مع الأعداء، إذ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾. ولعل أعظم نعمة يغاث بها الإنسان المؤمن حين الشدة، وساعة الصراع، هي الامداد الإلهي الغيبي.

ثم يمضي السياق ليذكر المؤمنين بشدة تلك المواقف الصعبة: ﴿إِذْ جَاءَوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ...﴾. فذلك كانت ساعة التمحيص

الكبرى، حيث زاغت العيون من شدة الخوف، وراح المؤمنون يتحشرون في أنفاسهم وكأن قلوبهم قد انخلعت، حتى ظن بعضهم أنّ ربّهم قد خذلهم، وأوقع بهم في المهلكة. وهناك كانت ساعات التمحيص ولحظاته، حيث استخرج الله عز وجل ما خفي في نفوسهم وقلوبهم، وأزال منها ما كان قد علق بها من الأدران والشوائب فأجلاها ونقاها في هذا الاختبار الصعب.

والإنسان المؤمن الواعي لا يمكن أن يغفل هذه الحقيقة، فيدع الشيطان يداهم نفسه، ويوهمها بالكمال والصلاح، فيرضى عن نفسه، ويكتفي بما بلغه من السير على طريق الكمال والصلاح، بل يبقى لآخر لحظة من حياته يروض نفسه، ويربّيها على التقوى من أجل أن يضمن لها حسن العاقبة، وهو الأمر الخطير والمهمّ لدى كلّ إنسان.

المنافقون شياطين الإنس

ثم ينتقل السياق ليتحدث عن شياطين الإنس المتمثّلين في المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فهؤلاء المنافقون يظنون أنّ سرّهم سيظلّ خافياً على الأمة وقيادتها الرساليّة، فيبقون يكيدون للمؤمنين

الفصل الأول: حكمة الابتلاء

في الخفاء، ولكن الله سبحانه شاء أن يكشف أمرهم، ويفضحهم في المواقف الحرجة، ليظهروا على حقيقتهم السوداء المنكرة، وليُفضحوا على رؤوس الأشهاد، فيُلعنوا مدى الدهر.

والمنافقون أشدّ خطراً على الأمة من الكفار والمشركين، وقد جاء التأكيد في القرآن الكريم كراراً على خطورة وجودهم، وحركتهم الخبيثة داخل المجتمع الإسلامي. ولقد ابتلي المسلمون بداء النفاق منذ الأيام الأولى للدعوة الإسلامية وحتى يومنا هذا، وقد إنكشف أمر البعض منهم في أيام رسول الله ﷺ، فتصدّى لهم المسلمون، وأوقفوهم عند حدّهم، وربّما نالوا جزاء نفاقهم، والبعض الآخر كشف عنهم النبي ﷺ، ولكنه لم يقم بعمل من شأنه أن يردّعهم بسبب طبيعة الظروف، فظهر دورهم التخريبي في أيام خلافة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

الابتلاء يفضح المنافقين

فالبلاء إذن له مردودات إيجابية على صياغة روح المؤمنين، وصقل نفوسهم، وإظهار معدنهم الحقيقي، وبالإضافة إلى ذلك فإنه يعود عليهم بالنفع المتمثل في افتضاح النفاق والمنافقين في المواقف الصعبة. وهذه هي طبيعة المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، أي الذين تكدّرت

قلوبهم، واسودّت بالحسد، فغدت مريضة تعيش الحسد والحقْد والبغضاء.. فهم يحرصون على الدنيا وملاذها، ويلهثون وراء سراها، تاركين الجهاد في سبيل الله، ويثبّطون المؤمنين، وينالون من عزائمهم ولذلك كان حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، وباباً من أبواب النفاق. ومن هنا نرى أن المؤمنين الصادقين يحذرون الانغماس في ملذّات هذه الدنيا، فلا ينالون منها إلّا ما قُدّر لهم من حلالها الطيب. ولا بأس في هذا المجال أن نزور الآثار وما فيها من الديار والقصور الفخمة والابراج والقلاع التي تركت في كلّ مكان من هذه الأرض، ففي ذلك عبرة لأولي الألباب. والإنسان المؤمن ينظر الى هذه الآثار والأطلال فيتدبّر مع نفسه، ويحدّثها، ويسألها: أين أصبح أصحابها؟ أليسوا قد نُقلوا من قصورهم الى قبورهم، وغدت عظامهم بعد ذلك رميماً؟ فما الذي أصطحبوه الى قبورهم هذه؟ فلمَ إذن كلّ هذا التخاصم والنزاع والتكالب على ما هو صائر الى الفناء؟!

كيف نتعامل مع الفتن

والسؤال الأخير الذي نطرحه هنا هو: كيف نتعامل مع الفتن والبلايا، ومع ما نعيشه من مشاكل لا تقلّ معاناة عن البلاء؟ إنَّ التعامل هذا يكون بأن نستغلّ مشاكلنا لتربية نفوسنا، وتقوية

الفصل الأول: حكمة الإبتلاء

ذواتنا، وشخصياتنا الإيمانية. وهذه المشاكل والصعاب التي تحلّ بالمؤمنين لا تزيدهم إلاّ إيماناً وثباتاً واستقامة على الطريق، أمّا المنافقون، فإنّ أمرهم سينكشف شيئاً فشيئاً، فيسقطون كما سقط أسلافهم من ذوي القلوب المريضة. والمؤمن الحقيقي يغدو في خضم هذه الفتن والبلايا مؤمناً إستثنائياً على غاية من التفوّق والتميّز.

فلنستثمر هذه المآسي والمعاناة لتربية أنفسنا وتركيتها، وتخرج جيل من المؤمنين الحقيقيين، ممن لا تغرهم الأموال والمصالح.

فلنخلص النية، ولنتحمّل المسؤولية الملقاة على عاتقنا، ولنبدأ باصلاح أنفسنا عسى الله أن يرحمنا، ويكتب أسماءنا في قائمة أولئك الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وطهّروا قلوبهم من النفاق، وكانوا في مستوى الابتلاء والتمحيص والفتنة، فخرجوا منها بوجوه بيضاء.

-1-

الثبات ثمرة الإبتلاء

من أبرز حُكم الله عز وجل في الحياة ، حكمة الفتنة والامتحان ، ولو عرف الانسان هذه الحكمة بوعي كامل ، لانكشفت أمامه حقائق كثيرة ، وزالت من قائمة إستفساراته تساؤلات كثيرة تتوارد على ذهن الانسان لتتركه حيران يبحث عن فلسفة خلقه ، والسبب الكامن وراء مجيئه الى الحياة ، والهدف من الصراع الدائر بين البشر والذي يفرز حالات قد تكون متباينة مثل الغنى والفقر ، والظلم والأمن .

إن النفس الأمارة بالسوء لا تبقى بعيدة عن مسرح هذه الشكوك ، بل تبادر الى طرح عشرات الأمثلة لزرع الوسوس في الانسان ، ولتتحول هذه الوسوس بدورها الى حُجُب وعقد تتركز في ذهن الانسان ، متحولة الى موجة عارمة لا تهديه السبيل ، بل تفقده الوعي والبصيرة .

إننا إذا عرفنا الفلسفة الحقيقية للمحنة، فإن هذه المعرفة سوف تكون مدعاة الى امتصاص البلاء، وإحتواء موجات الفتن والآلام والمآسي، وذلك ضمن معرفة الحقيقة العامة في الحياة والتي تقتضي حالة التغير والتقلب.

إنَّ سُنَّةَ الفتنه والامتحان لا تختص بالانسان فحسب، بل تدخل في مجال الطبيعة أيضاً. فالحدّاد يحيل الحديد الخام الى آلات، ويُطلق عليه اسم (الصانع) لأنه يصنع شيئاً عبر تعامله مع الطبيعة الأصلية من خلال إخضاعها للاختبار، وتعرضها للضغط، ليصل بهذه المراحل الى صيغة أساسية لحالة الصنع، الأمر الذي يؤكد على أن الطبيعة هي الأخرى تتعرض لنوع من الامتحان باشراف الانسان.

إن الانسان الذي يستطيع الثبات أمام حالات التغير في الحياة، هو الذي كان قد بنى نفسه كإنسان يستطيع مواجهة المتغيرات الحياتية. فالفقيه - مثلاً - لا بد أن يحافظ على كرامة شخصيته، ولا ينهار أمام الأغنياء، بل يحترم الغني لانسانيته، وللقيم التي يحملها. أما إذا احترم الغني لغناه، فانه سيكون قد أشرك مع الله سبحانه وتعالى إلهاً آخر، فيدفعه هذا الانهيار الى البحث عن العزة في قصور السلاطين.

وهكذا الحال بالنسبة الى الانسان الغني، فان من المفترض أن لا

يخرجه غناه عن طوره الانساني ، ولا يدعوه إلى التكبر والغرور.

أعظم الفتن

إن من أعظم أنواع الفتن ، الفتنة الاجتماعية التي تصيب المجموع . وإذا ما أراد الله جل وعلا أن يجرب إرادة شعب بأكمله ، فانه ينزل عليهم الفتنة الجماعية . وعلى سبيل المثال فعندما تنشب الحرب ويكون الاشتراك في هذه الحرب مؤدياً الى الشهادة أو الأسر أو الإعاقة الدائمة ، ففي هذه الحالة تظهر طبيعة الانسان على حقيقتها . والله سبحانه وتعالى يعرض البشر دائماً لهذا النوع من الإمتحانات ، وهو القائل : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾^١.

والمثال الواضح على ذلك من التاريخ معركة بدر الكبرى ، حيث ذهب المسلمون للحصول على المغامم واذا بهم يواجهون ألف فارس من فرسان الجزيرة العربية مدججين بالسلاح ، مع أن المسلمين كانوا قليلي العدد لا يملكون سوى أسلحة بسيطة تعد لا شيء بالقياس الى الأسلحة التي يتمتع بها العدو .

ويروي لنا عز وجل هذه الحادثة التاريخية ، قائلاً : ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ

١ - الفرقان: ٢٠ .

لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ^١.

فقد كانت مواقع الطرفين في المعركة مختلفة، ولو كانت هذه الحرب مقصودة ومدبرة سلفاً، لكانت احتمالات وقوعها قليلة، خصوصاً مع عدم تهيؤ أفراد الجيش لهذه المعركة. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا^٢﴾.

فالأمر الذي أراده الله تعالى من فجائية الحرب، هو معرفة الانسان لحقيقة طاقاته وقدراته، لكي يستطيع أن يدعي حينئذ أنه قادر على فتح البلاد وإدارة العباد، لا أن تفند كل ادعاءاته هذه عندما تأتي ساعة المواجهة.

ويؤكد عز وجل على فلسفة المباغته والمفاجأة، قائلاً: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ^٣﴾. وهو سميع عليم، لأنه يراقب مجريات المعركة عن كثب، ويعلم بما في صدور المسلمين.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْنَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَتَنَّزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ^٤﴾.

١- الأنفال: ٤٢.

٢- الأنفال: ٤٢.

٣- الأنفال: ٤٢.

٤- الأنفال: ٤٣.

فعلى الرغم من أن جيش المشركين كان ذا عدد ضخم بالمقياس العسكري لذلك العصر، ولكن الله تبارك وتعالى قلل من شأن هذه القوة عند رسول الله ﷺ في منامه، لكي تنتصر إرادة المؤمنين على واقع هذه المجموعة المزيفة.

تقييم واقعي

وإني أستوحي من هذه الآيات الكريمة، أن القيادات العسكرية مكلفة بزرع حالة الاستهانة لدى الشعب بالعدو، في الوقت الذي تقوم فيه القيادة بعملية التقييم الواقعي لقوة العدو دون أن تضخم وتبالغ، لئلا تصاب الجماهير بهزيمة نفسية. فبدلاً من ذلك، على هذه القيادة أن تزرع الأمل والحيوية والنشاط في نفوس الجماهير لمواجهة العدو، وهذا هو ما فعله القرآن الكريم، إذ تقول الآية الكريمة صراحة: ﴿وَلَوْ أَرْكَنَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَزَعَتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^١.

فلو كان التهويل والتضخيم قد حدثا، لسرت بعض الشائعات في الجيش الاسلامي بعدم القدرة على مواجهة العدو، وضرورة العودة الى المدينة. ولكن المسلمين عندما بدا لهم أن العدو قليل العدد اندفعوا للقتال، وحاربوا الكفار بكل عزم واصرار حتى حققوا الانتصار

١- الأنفال: ٤٣.

عليهم. وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^١.

فلقد قدر الله جلّت قدرته أمرين ، فقلل المشركين في نظر المسلمين ، وقلل المسلمين في نظر المشركين ، لكي تكون نتيجة هذا التقدير وقوع الحرب. لأن المشركين لو كانوا يعرفون قوة جيش الرسول ﷺ وأن بصحبته أبطالاً أسوداً من مثل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وحمزة لهربوا وجبنوا. ولكن إستهانتهم بقوة جيش الاسلام ، دفعتهم الى محاربتة. ومن جهة أخرى رأى المسلمون ان قوة قريش زائفة ، فأعطاهم الله تعالى الأمل ، وأمدهم بالقوة الايمانية.. الأمر الذي مكنهم من التغلب على القوة المادية الظاهرة المتمثلة في جيش المشركين. وبوقوع هذه المعركة إكتشفت العرب خواء وزيف قوة قريش العسكرية ، وتيقنت من قوة الايمان العظيمة.

سر الانتصار

ثم يستمر السياق القرآني الكريم ليلخص عبرة التاريخ كاملة في كلمات قصار ، لو عرفها المسلمون وأدركوها بوعي تام لما حدثت

١- الأنفال: ٤٤.

الفصل الأول: حكمة الإبتلاء

هزيمة واحدة في تأريخهم. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^١.

والخطاب في هذه الآية موجه الى فئة المؤمنين ، الذين يمثلون صنفاً خاصاً من عموم الناس .

إن من أهم صفات المؤمن التي تقررها هذه الآية ، هي صفة الثبات ، الذي يتجلّى في الثبات القلبي من خلال اليقين بقدرة الله تعالى ، والتوكل عليه ، وعدم التشكيك في طاقات الانسان وقدراته عبر الوسائوس الشيطانية التي تمارس دور الشيط ، معللة ذلك بعدم تساوي القوى المادية لدى المؤمن مقابل العدو .

والقرآن الكريم يطالبنا هنا بالثبات الذي كان يتمثل في صدر الاسلام بجريد النخل أمام السيف ، أمّا الآن فانه يتجسّد في الأسلحة اليدوية مقابل الدبابات والطائرات .. وهذه المسافة متقاربة الى حدّ ما ، لان سلاح الايمان يضيف الى إمكانيات الانسان المؤمن قوة هائلة لا يمتلكها العدو .

كما ويتجلّى الثبات في نوعه المادي بالصبر على تقدير الله عز وجل ، وإن قدمنا الكثير من الشهداء ، وسالت الدماء الزكية على أرض المعركة . فالثبات في المواقف الصعبة هو سر الانتصار في التاريخ ،

١- الأنفال: ٤٥ .

وتلك الآية المباركة كانت حبل نجاة المسلمين في الكثير من المعارك التي خاضوها.

ولا نبالغ إن قلنا أن حالة الثبات في المواجهة هي التي فتحت الآفاق الواسعة أمام المسلمين، اذ زادتهم شجاعة واطمئناناً وسكينة، واستعداداً من أجل التضحية والفداء، بالإضافة الى ذكر الله الذي هو ضماننة الانتصار أمام الضغوط، كما يقول تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^١.

الفصل الثاني:

ثمار الإبتلاء

- ١- الثمار الإيجابية للإبتلاء
- ٢- سبيل العودة الى الفطرة
- ٣- حكمة الحياة
- ٤- حكمة الوجود
- ٥- مصنع الرجال

-/-

الثمار الإيجابية للإبتلاء

من ضمن الحقائق الثابتة التي لا مجال للشك والترديد فيها، هو أنَّ الهدف من وجود الانسان في الحياة أسمى بكثير من التمتع بملاذ الدنيا والعيش كما تعيش البهائم. فهو يدخل خلال حياته في خضم دورة تربوية تعليمية عميقة الأثر في كيانه، ثم يخرج منها إمّا الى جنة عرضها السماوات والأرض، لا توصف نعمائوها ولا تدرك لذائذها، وإمّا الى نار سجّرها جبارها لغضبه، حيث تنعدم منها الرحمة والأمان.

ولو عرف الانسان هذه الحقيقة وأدركها لاستقامت حياته، ولاستطاع أن يتفوق على جميع المؤثرات، ويتحدى كل المتغيرات.

ولكن كيف يتسنى لنا ان نعرف هذه الحقيقة؟

من الأمور والظواهر المشهودة في حياتنا أننا إذا أصبنا في أموالنا أو

أبنائنا وما الى ذلك ، فإن أنظارنا تتركز عادة على ذات المصيبة ، فنسأل أنفسنا قائلين : لماذا نزلت بنا هذه المصيبة ، ولماذا خصتنا دون غيرنا؟ في حين أن من الأجدر بنا أن نعي ظروف المصيبة وخلفياتها ، ونستفيد منها - بالتالي - كمنهاج تربوي لنا في حياتنا.

كيف تعامل الائمة مع المآسي؟

ونحن نستطيع أن نلمس بشكل مباشر هذ الحقيقة في واقعة الطف ، التي لا يشك أحد في أنها كانت أعمق أثراً ، وأوسع نطاقاً من أي مصيبة أخرى. ففي صلب أجواء هذه المصيبة كانت للإمام الحسين عليه السلام كلمات وخطب تتفجر منها الحكمة ، وتفيض منها الروح الايمانية الصلبة ، والنور الإلهي البهي. فكلماته عليه السلام التي انطلقت من صميم واقع المصيبة كانت تعبر عن العمق الإيماني ، والروح الوثابة في جبهة الإمام الحسين عليه السلام.

وهكذا الحال بالنسبة الى الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ، ففي اللحظات الأخيرة من حياته وهو يعاني من ألم السم القاتل الذي دسّه إليه معاوية ، دخل عليه جنادة طالباً منه أن يوصيه ، فيبادر الإمام الى تقديم وصيته له قائلاً : «وَأَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا وَأَعْمَلْ لآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا، وَإِذَا أَرَدْتَ عِزًّا بَلَ عَشِيرَةٍ، وَهَيْبَةً بَلَ سُلْطَانٍ، فَأَخْرِجْ مِنْ

ذُلَّ مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^١.

ولا ريب إن هذه الوصايا لم تكن مجرد كلمات عابرة يطلقها إنسان يحتضر، ويكاد جسده يتفجر من الألم، بل هي كلمات تفيض حكمة ورشداً وروحاً إيمانية. وفي ذلك دلالة كبرى على مدى استيعاب الإمام عليه السلام لحكمة الحياة، فقد استطاع بشخصيته العظيمة أن يتجاوز حدود المأساة. وهنا ينبغي الإشارة الى حقيقة هامة، وهي أنَّ الإنسان الذي سرعان ما يستسلم للمصيبة، ولا يخطر على باله أن يقاومها ويتحداها، إنما هو إنسان ضعيف لم يترسخ الايمان في قلبه، ولم تطمئن نفسه ولو للحظة واحدة. كما أنه لا يمتلك رؤية مستقبلية الى الحياة، بل ينظر الى لحظته التي يعيشها فقط.

المصائب ضرورية

وبناءً على ذلك فإن المصائب التي تتوالى على الانسان ضرورية لبناء شخصيته، بالرغم من عدم رغبته في أن تنزل عليه. ومع ذلك فلولاها فانه لا يستطيع أن ينتبه الى أخطائه، ونقاط الضعف في شخصيته، ولولاها لما عرف قدره ومكانته في الحياة. فمن ضمن فوائد المصيبة أنها تنقذ الانسان من الغفلة، وتذكره بواقعه.

١- بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ١٣٩.

والقرآن الكريم ينبّهنا في سورة الانعام ، وعبرآيات عديدة إلى الثمار الايجابية للمصائب والصعوبات التي يلاقيها الانسان في حياته ، فيقول عز وجل في هذا المجال : ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقَطَّعَ دَايِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١﴾.

والآيات الكريمة هذه تبين لنا أن الانسان قد يصاب أحيانا بالغفلة حتى عن الله سبحانه وتعالى ، وحينئذ يأتي دور المصائب لتعيده الى ذكره - تقدست أسماؤه - وتوسع من آفاق معرفته .

وفي هذا المجال يروى إن رجلاً جاء الى الإمام الصادق عليه السلام ، وقال له : يا بن رسول الله ، دلني على الله ما هو ، فقد أكثر عليّ المجادلون وحيروني ؟

فقال له : « يَا عَبْدَ اللَّهِ هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ ؟ » قال : نعم .

قال: «فَهَلْ كُسِرَ بِكَ حَيْثُ لَا سَفِينَةٌ تُنْجِيكَ وَلَا سِبَاحَةٌ تُغْنِيكَ»؟ قال: نعم.

قال: «فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ أَنَّ شَيْئاً مِنَ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ»؟ قال: نعم.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنِّجَاءِ حَيْثُ لَا مُنْجِي وَعَلَى الْإِغَاثَةِ حَيْثُ لَا مُغِيثٌ»^١.

ومن هنا نفهم أنَّ حالات المصائب والرزايا تقرب الانسان الى الله تعالى، وتزيد من معرفته به. وهل هناك نعمة أكبر وأعظم من نعمة معرفة الله تبارك وتعالى، هذه النعمة التي تعد خير الدنيا والآخرة، وهل هناك نعمة أشد من نعمة الضلالة والغفلة عنه عز وجل؟

وعند نزول المصائب لا يتعلق الانسان المؤمن بشئ غير الله، وهذا ما يقودنا الى التوجه نحو رب العزة دائماً وأبداً، وبذلك نتحدى المصائب. فهي عندما تلم بنا فاننا سنرفع رؤوسنا وأيدينا متضرعين، طالبين من الله تعالى أن يرفعها عنا، ويسر أمورنا. فهو القادر وحده على كشفها.

وعلى الانسان أن يستدل من خلال زوال المصائب عنه، وخلاصه

١- التوحيد [للصدوق]، ص ٢٣١.

منها، أن هناك قوة فوق هذه القوى ، ألا وهي قوة الله تعالى .
وفي ظروف المصائب التي نمر بها يجدر بنا أن نزداد إيماناً ، وضراعة
الى خالقنا من خلال إستغلال الدقائق والساعات والأيام في التوجه
الى الله والتضرع إليه . فهو جل شأنه يباهي ملائكته بعبده المؤمن الذي
يقوم من نومه ، ويصلي له ركعات في جوف الليل ، ويدعوه بأحسن
الدعوات ، ويتبتل إليه ، ويعرض له حوائجه ، فانه مجيب دعوة
المضطرين ، ونصير المظلومين .

التضرع هدف الإبتلاء

وتشير الآيات القرآنية السابقة الى أن المشاكل والمصائب كانت
تتوالى على كل أمة من الأمم مع مجئ كل نبي مرسل إليها ، الى درجة
أن البعض كان يعترض على نبي زمانه بأنه لو كان حقاً نبياً مرسلأ
فلماذا كل تلك المصاعب والأزمات التي يمرّ بها؟ إلا أنهم لوكانوا
قد تبصروا في تلك المصاعب والأزمات لأدركوا أنها لم تنزل عليهم
إعتباطاً ، وإنما ضمن هدف وحكمة بالغة من الله سبحانه ، هي إثارة
عقل الانسان ، وتنمية إرادته ، وتوسيع أفقه ، وبعث مواهبه ، وإثارة
حوافز الخير عنده.. ولذلك يقول تعالى في بيان فلسفة الابتلاء :
﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

الفصل الثاني: ثمار الابتلاء

إن حالة التضرع الى الله جل وعلا تمثل قمة سامقة في سماء الايمان ، لا يبلغها إلا من تخلص من الأنانية والذاتية ، وكل حالات الجهل والتخلف والعصبيات .

ومع ذلك فاننا لم نستطع بعد أن نصل الى مستوى الضراعة ، ولذلك فان النصر لم يتنزل علينا . فنحن ما نزال مصرين على عاداتنا التي تشوبها بعض الصفات السلبية كالاستهزاء ببعضنا البعض ، وعدم سيادة الاحترام فيما بيننا ، وبخس حقوق الآخرين .

فلننبذ جانباً هذه الصفات ، ولنتضرع الى الله سبحانه وتعالى ، ولو لفترة قصيرة لنرى كيف أن الله سوف يرأف بنا ، وينزل علينا نصره .
ثم يقول تعالى مشيراً الى تلك الفئة التي لا تعتبر من المصائب :
﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فهناك البعض من الناس لم تنفعهم المصائب ، لأنهم لم يعتبروا بها ، فكلما نزلت بهم مصيبة كانت كأن لم تكن شيئاً مذكوراً ، ونتيجة لذلك فقد أصبحت قلوبهم قاسية قد أحاطت بها الذنوب من جميع أرجائها .

إنَّ مثل هذه الحالة تدعونا الى الحذر . فالأجدر بنا إذن أن نستغفر

الله سبحانه وتعالى حال إرتكابنا أية معصية أو ذنب صغير. أمّا إذا لم يتضرع الانسان الى ربه ، فان الله سيستدرجه بإنزال النعم الوافرة عليه ، وحينئذ ينزل العذاب عليه بغتة ، ويأخذه أخذ عزيز مقتدر.

-٢-

سبيل العودة الى الفطرة

رغم أن الانسان قد زُوِّد بعقل يساعده على رؤية الحقائق وملاستها، إلا أنه - في نفس الوقت - أبتلي بِجُحْب من الشرك تعطل أجهزة البصيرة عنده عن العمل، الأمر الذي يحول دون رؤيتها. وهناك الكثير منا يزعم أنه يعيش الحقائق بوعي، وإحساس دقيق، إلا أن هذا الزعم كثيراً ما يشوبه الخطأ. فالغالبية العظمى من الناس لا يعيشون إلا ظلال الحقائق، ولعل البعض منهم يعيش أوهاماً يظن أنها هي الحقائق.

النموذج الأسمى

وقد كان رسول الله ﷺ، وأهل بيته الطاهرون، والأولياء الصالحون، النموذج الأسمى لادراك الحقائق ورؤيتها. فعندما يخيم الليل بظلامه

الدامس ، تجد الناس يستوحشون منه ، فيسارعون إلى فراشهم ليغطوا في نوم عميق حتى ينبلج الصباح. بينما النبي وأهل بيته ومن سار على نهجهم وهداهم يأنسون بظلام الليل ، حيث يقضون الليالي في التبتل والتهجد والعبادة ، ويتأملون السماء وما فيها من الآيات الربانية بقلوب منسرحة ، وببصيرة نافذة.

ومن المعلوم إن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان في أحسن تقويم ، وزوّده بالقدرة على النطق لكي يستطيع التفاهم مع أبناء جنسه ، وجعل بينه وبين الخلق حاجات مشتركة. ولو عشنا الحقائق لأدركنا أنّ هذه الظواهر تمثل كتلة من مظاهر الجمال التي أنعم بها الخالق تبارك وتعالى على الانسان.

ومع ذلك فإن الحُجُب لا تدع الانسان يتحسس مظاهر الجمال تلك ، بل تفرض عليه أن يعيش في السلبيات ، فلا يرى من الحياة إلا جانبها المأساوي السلبي. وهذه الحالة تدفع بالانسان عادة الى أن يسجن نفسه في زوايا ضيقة من هذا العالم الواسع دون أن يفتح على آفاقه الرحبة ، حتى أنك تراه يفقد علاقاته مع الآخرين بصورة تدريجية.

إنّ هذا المنحى يخالف فطرة الانسان التي تحته على التواصل مع

الفصل الثاني: ثمار الابتلاء

الآخرين ، والانسجام مع الكون بكل موجوداته. ومن هنا يتضح لنا أنَّ مشكلة الانسان تتلخص في أنه يعيش وراء الحُجُب التي تتمثل بمجموعة من الأفكار الجاهلية التي متى ما استطاع الانسان أن يتحرر منها ، ويعيش الطبيعة كما خلقها الله عز وجل ، فانه سيحقق الانجازات التالية :

١- العيش في أجواء الايجابية والتفاهم، فمن خلال هذه الأجواء

سينظر الى جميع مآسي ومنغصات الحياة بنظرة متفائلة دائماً.

٢- الوصول الى مستوى النشاط والحيوية تبعاً لما تمليه عليه

طبيعته المتفائلة التي تأبى الكسل والخمول.

إنَّ الذين يركنون الى الكسل ، والركود ، إنما تدفعهم الى ذلك حُجُب داكنة ، تمنعهم من رؤية جمال الحركة ، وتفصلهم عن ضميرهم. فنحن نرى أنَّ مجتمعاتنا مقيّدة بأغلال من مثل الخجل ، والخوف ، والتردد.. هذه الحجب التي كرّستها التربية الخاطئة ، مما حالت دون إنطلاقة شعوبنا لتحقيق طموحاتها الحضارية. وكل ذلك يعود - بالدرجة الأساس - الى إبتعاد الانسان عن الحقائق ، وعن الفطرة النقية.

كيف يعود الانسان الى فطرته

وثمة سؤال مهم في هذا المجال هو: كيف يتسنى للانسان أن يعود الى فطرته في صفائها ونقاها، لكي تدفعه هذه الفطرة الى التحرك والنشاط والعمل؟

إنَّ تحقيق هذا المكسب ممكن من خلال أحد أمرين :

١- أن يدعو الانسان داعيةً الى ذلك، كما كان الحال بالنسبة الى الجزيرة العربية التي كانت ترزح تحت وطأة الحُجُب الجاهلية، فجاءها النبي الأعظم ﷺ، وأطلق فيها صرخته المدوية: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»^١. فأخرجها من ظلمات الجاهلية الى نور الاسلام.

٢- أن يعاني الانسان الصعوبات، ويعيش المشاكل لكي تتضح له الحقائق عن كذب، ويبدد بذلك كل الأوهام والظنون.

فقد يتصور الانسان أنه من المقربين الى الله تعالى، وأن دعاءه مستجاب، ولكن عندما تحيط به الأزمات، وتنزل عليه الكوارث، فانه يستغيث حينئذ بخالقه، ولكنه يكتشف أن دعاءه لا يُستجاب، ذلك لأن مقاومة الأزمات، ومواجهة المحن بحاجة الى عمل دؤوب،

١- بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٠٢.

الفصل الثاني: ثمار الابتلاء

وتوضيحات مكثفة، وإرادة صلبة.

صحيح إن الدعاء يعتبر - في حد ذاته - ممارسة مفيدة ونافعة، ولكنه لا بد أن يقترن بالعمل.

ومن هنا ينبغي علينا أن لا نعيش الأوهام، وأن لا ننساق في تيار الأفكار الجاهلية، والقناعات الباطلة، بل يجب علينا أن نتوجه نحو الحقائق. فعندما تحيط بنا الملمات والمصائب، فإن من الواجب علينا أن لا نستسلم لها، بل علينا أن نحولها الى وسيلة ليقظتنا. وبذلك تتهاوى الحُجُب، وحينئذ سيكون بمقدور الانسان أن ينظر الى الحقائق نظرة جديدة جدية، ويستلهم منها سبل تغيير نفسه، وسوق مجتمعه باتجاه الكمال.

والقرآن الكريم يوجهنا الى هذه الحقائق في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ * بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ^١.

ففي ظل المآسي والصعاب تتساقط الافكار الجاهلية الواحدة تلو الأخرى، وتبتدّد القناعات البالية، وحينئذ يتجه الانسان صوب المنقذ الحقيقي، من خلال العودة الى الله تقدست أسماؤه.

١- الأنعام: ٤٠-٤١.

فلسفة المآسي

وبعد ذلك يبين لنا السياق القرآني فلسفة المآسي والويلات التي تترى على البشرية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾* فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^١.

وهكذا فإنَّ الغرض من إرسال الرسل، ونزول البأساء والضراء من كوارث طبيعية ومن حروب، إنما هو إيقاظ الإنسان وعودته الى فطرته. وهذا الهدف لا يمكن أن يتحقق إلا في حالة التضرع الى الله تعالى، ونبذ جميع الافكار الشركية التي إن أصرَّ عليها الانسان معانداً مسيرة الحق فسوف يبقى يعيش في دوامة المآسي الى نهاية عمره.

ومما يؤسف له إننا وعلى الرغم من المآسي والويلات التي حلت بنا، ترانا ما نزال نولي وجوهنا شطر الاختلاف والتفرقة. ولا يختلف إثنان في أنَّ هذا التوجه لا يخرج عن الدائرة الجاهلية، إلا أنَّ الإصرار على ذلك هو الذي يجعلنا نرزع دائماً تحت العذاب. وهذه نتيجة طبيعية، لأننا خالفنا بها الحقائق. أ وَلَمْ يَقل رَبنا سبْحانه وتعالى:

١- الأنعام: ٤٢-٤٣.

الفصل الثاني: ثمار الإبتلاء

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^١ أَوَلَمْ يُوَجِّهْنَا إِلَى الْمَبَادِرَةِ
لَأَدَاءِ أَعْمَالِ الْخَيْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^٢.
وهكذا فاننا متى ما عدنا الى تلك القيم الالهية التي تعتبر التجلي
الواضح للحقائق، فاننا سوف نعيش حينئذ السعادة الحقيقية في الدنيا
والآخرة.

١- آل عمران: ١٠٣.

٢- الزلزلة: ٧.

-س-

حكمة الحياة

من المعلوم أنَّ الله سبحانه وتعالى قد خلق الكون رحمة من لدنه ،
وانتشرت آثار رحمته في كل شيء ، وخلق البشر ليرحمهم لا ليعذبهم ،
فلماذا نجد في بعض الأحيان يُنزل عذابه على البشر إمّا في صورة قحط
وفقر ، أو في صورة مرض وحوادث طبيعية كالسيول والفيضانات وما
الى ذلك ، وإمّا في صورة الحروب الداخلية ، فلماذا كل ذلك يا ترى
أوليس الله أرحم الراحمين ، أولم تتجلى رحمة الله في كل شيء ؟
إننا بفطرتنا وبمقدار عقولنا المحدودة عرفنا من ربنا الرحمة ، فمَنْذ
أن كان الانسان نطفة في قرار مكين ، إلى أن أصبح في رحم أمه ، إلى
أن خرج الى هذه الدنيا وأودع في قلب أمه وأبيه الرحمة والعطف
عليه ، الى أن نما وترعرع ، فان حياته محاطة بآثار رحمة الله .. فما هي

فلسفة العذاب في الدنيا ، وما هي فلسفة الآلام والأمراض والكوارث الطبيعية؟

إنَّ فلسفة كل ذلك هي إمتحان الانسان وابتلاؤه ، لأنَّ فلسفة خلق الانسان فوق هذا الكون تختصر في الفتنة والامتحان والابتلاء. ومن عرف هذه الفلسفة يستطيع أن يجعل حياته في الدنيا حياة سعيدة ، ووجهته الى الله سبحانه وتعالى وجهة سليمة ، ومن لم يعرفها كفر وظلم نفسه وخسر حياته في الدنيا والآخرة ، وهذا هو الخسران المبين. إننا نواجه الآن طائفة من المشاكل ، من غلاء في بلد ، الى فقر مدقع ومجاعة في بلد آخر ، الى حرب داخلية مدمرة في بلد ثالث ، الى غزو غاشم لبلد آخر. وهذه جملة مشاكل ، ولا يخفى على أحد منا حجم هذه المشاكل وانتشارها. فكل واحد منا إذا فتح المذيع ، واستمع الى أي إرسال من أي اذاعة ، فان أول خبر يسمعه إما قتل ، وإما مجاعة ، وما الى ذلك. وكذلك عندما يقرأ الصحف ، لا ينتهي من خبر مزعج إلاَّ ويأتيه خبر مزعج آخر. فما هي الطريقة المثلى لتعاملنا مع هذه الاخبار؟

إنها التسلّح بالبصائر القرآنية ، وفهم حكمة الوجود ، وبذلك نستطيع أن نعرف كيف نتعامل مع هذه الأمور. فالابتلاء هو حكمة

الفصل الثاني: ثمار الابتلاء

الحياة ، فالغني مبتلى بماله ، والفقر مبتلى بفقره .. فالغني إذا أوتي من نعم الله وفضله شيئاً فعليه أن يعطي للآخرين ويسعدهم . وأما الفقير فاذا منع من فضل الله بقدر ما ، فلا بد ان يصبر ، ولا بد أن لا يفقد إيمانه ، ولا يفقد دينه ، ولا يفقد استقلاله . فكل من الغني والفقير مبتليان كما يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾^١ .

فالله عز وجل خلق الانسان بحيث يتلي البعض بالبعض الآخر ، فالقوي قوته فتنة ، والضعيف ضعفه فتنة . وإذا أصبح الانسان قوياً فان عليه أن يستخدم هذه القوة في سبيل الله . فقد يمتلك شخص ما قوة وشجاعة ثم يقول لنفسه : سأنزل الى الشارع وأثبت قوتي على الضعفاء . في حين أن هذا السلوك ليس صحيحاً ، لأن الذي أعطاك هذه القوة إنما منحها إياك ليختبرك ، وإلا فانك لا تستطيع أن تطالبه بحق ، فهو باستطاعته أن يسلبها منك .

وعلى سبيل المثال فان موسى بن عمران عليه السلام كان في وضع مزر ، وكان غريباً مهاجراً مطارداً عندما كان في مدين ، وكان جائعاً ، حسب ما جاء في رواية عن الإمام علي عليه السلام أنه قال : « وَإِنْ شِئْتَ ثَبِّتْ بِمُوسَى كَلِيمَ اللَّهِ حَيْثُ يَقُولُ : « رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » وَاللَّهِ مَا سَأَلَهُ

إِلَّا خُبْرًا يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ وَلَقَدْ كَانَتْ خُصْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ لِهَزَالِهِ وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ»^١.

ولكن عندما لاحظ أن كل واحد من الناس سقى غنمه، ثم بقيت إمرأتان تذودان، قال لهما: ما خطبكما؟ فقالتا له: نحن نملك قطيعاً لكن أبانا شيخ كبير ونحن نساء لا نستطيع مزاحمة الرجال على السقاية. فما كان منه إلا أن سقى لهما، ولم يطلب أجراً، أي إنه إستغل قوته وعضلاته في سبيل مساعدة المستضعفين.

إنَّ البعض يقول: أنا لا أملك إمكانيات. ونحن نقول له: لا بأس، ولكن ألا تملك عضلات؟ فإذا كنت لا تملك قوة مالية، فانك تملك قوة جسدية والحمد لله. ومع ذلك فإن البعض يقول أنه لا يمتلك لا المال ولا القوة الجسدية، وأنا أقول له: نعم، ولكن عندك الوجهة الإجتماعية. فلتبذلها في سبيل الله سبحانه، لأنَّ الوجهة إمتحان للانسان، وقد جاء في حديث شريف عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)، أنه قال: «وَالشَّفَاعَةُ زَكَاةُ الْبَآءِ»^٢.

وقد يوجد شخص آخر لا يمتلك كل ذلك ولكنه يتمتع بلسان طيب، فباستطاعته أن يشجع الآخرين بالكلمة الطيبة التي هي

١- نهج البلاغة [صبحي الصالح]، خطبة ١٦٠، ص ٢٢٧.

٢- بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٦٨.

الفصل الثاني: ثمار الابتلاء

صدقة، فتعال واخدم الاسلام بلسانك. وفي هذا المجال يُروى أنه لما رأى رسول الله ﷺ في معركة حنين هزيمة القوم عنه قال للعباس وكان رجلاً جهورياً صَيِّتاً: «نَادِ فِي الْقَوْمِ وَذَكِّرْهُمْ الْعَهْدَ»^١، فنادى العباس بأعلى صوته: يا أهل بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، إلى أين تفرون؟ اذكروا العهد الذي عاهدتم عليه رسول الله صلى الله عليه وآله... وهكذا استنهضهم العباس بصوته وأعادهم الى ساحة المعركة فانقلبت المعادلة لمصلحة المسلمين.

وبناءً على ذلك فإنّ الانسان قد يمتلك صوتاً، أو قوة بدنية، أو جاهاً، أو مالاً... فأَيُّ شيء يمتلكه هو امتحان له. هذا بالنسبة الى القوي الذي يملك شيئاً، أما بالنسبة الى الضعيف، أو المطارد، أو المهاجر فحرام عليه أن يبيع نفسه. فهناك الآن نوع جديد من شراء الولاء، حيث يُطلب من الإنسان أن ينتمي الى التجمّع الفلاني لقاء كذا مقدار من المال!! ولكننا نقول: إذا كنتَ مؤمناً بهذا الخط والفكر والقيادة وهذا التجمّع، فأهلاً وسهلاً، وانتم إليه بايمانك. أما إذا كنتَ غير مؤمن بهم، ولكنك من أجل المال الذي يملكونه تخضع لهم ولأفكارهم وخطهم وثقافتهم، فان هذا يعني بيع النفس. وللأسف

١- انظر: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج ١، ص ١٤٢.

فان بعض الناس يقول: من يدفع أكثر أنا معه! كيف يكون ذلك؟ إنَّ هذا طاغوت، والانسان الذي يتبع من لا يؤمن به طمعاً في ماله، أو خوفاً من سطوته، فانما يتبع الطاغوت، في حين أن عليه أن يتبع الله عز وجل.

وهكذا فان على الجميع أن يحذر من المواقف المنحرفة الجاهليّة، فالفقير فقره امتحان، فعلينا أن لا ننظر إليه نظرة إحتقار، إذ من الممكن أن يكون أفضل منا تقوى وإيماناً، وإنَّ صبره على فقره هو أكبر أجر له من الله تعالى من إحترامنا للغني. وكذلك المهاجر من بلده، صحيح انه لا يملك وطناً، ولكن له كرامته وإيمانه واستقلاله، فلا بد من احترامه وتقديره، ومن جهة أخرى يجدر بالمهاجر أن لا يركض وراء أية راية تُرفع، بل يجدر به أن يعرف أية راية هي الأقرب الى الله تعالى، وهل هو مقتنع بها حقاً أم لا.. لأنَّ من طبيعة الإنسان أن يخلط المصلحة بالدين، والهوى بالحق.. فلا بد من التمييز بينهما.

وهكذا فإنَّ السليم مبتلى بعافيته، والسقيم مبتلى بسقمه، والحاكم مبتلى بقدرته، والمحكوم مبتلى بضعفه.. فالحياة كلها إبتلاء، وفهم حكمة الإبتلاء فيها يجعلنا نحيا حياة سعيدة.

وعلى هذا ينبغي على كل من يملك علماً أو جاهاً أو قوة..

الفصل الثاني: ثمار الإبتلاء

وعلى كل من ابتلي بفقر أو ضعف.. أن يفهموا أن هذه الدنيا محفوفة بالابتلاءات، وأنها ليست ببعيدة عن كل واحد منا، ولا مناص لنا إلا أن نطلب من الله بقوته وقدرته، وبحق نبينا الأعظم وأهل بيته أن يعيننا على أنفسنا في مزالق الحياة، وأن لا يكلنا الى أنفسنا طرفه عين أبداً.

-٤-

حكمة الوجود

عندما خرج سيدنا وإمامنا أبو عبد الله الحسين عليه السلام من مكة تلقاء العراق قاصداً الكوفة، توافدت عليه مجموعات من المعارضين للنظام الأموي، والقاعدين عن الجهاد.. يتساءلون عن السبب الذي دفع الإمام عليه السلام الى الخروج في هذا الوقت، في حين إن الظروف المناسبة لخروجه ضد طاغية عصره يزيد بن معاوية لم تنضج بعد حسب تصورهم.

وقد أجاب عليه السلام كل فريق باجابة مختلفة، كل حسب فهمه وظروفه وانتماءاته.

فقد قال لبعضهم: «إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ أَخَذُوا مَالِي فَصَبَرْتُ، وَشَتَمُوا عِرْضِي فَصَبَرْتُ، وَطَلَبُوا دَمِي فَهَرَبْتُ»^١.

١ - بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٦٨.

وقال لمجموعة أخرى: «كُتِبَ إِلَيَّ أَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ وَأَتَتْنِي رُسُلُهُمْ يَسْأَلُونِي الْقُدُومَ إِلَيْهِمْ فَقَعَلْتُ»^١.

وروي عن الامام الصادق عليه السلام أنه: «أَتَتْهُ أَفْوَاجٌ مُسْلِمِي الْجَنِّ فَقَالُوا: يَا سَيِّدَنَا نَحْنُ شِيعَتُكَ وَأَنْصَارُكَ فَمُرْنَا بِأَمْرِكَ وَمَا تَشَاءُ، فَلَوْ أَمَرْتَنَا بِقَتْلِ كُلِّ عَدُوٍّ لَكَ وَأَنْتَ بِمَكَانِكَ لَكَفَيْنَاكَ ذَلِكَ. فَجَزَاهُمْ الْحُسَيْنُ خَيْرًا وَقَالَ لَهُمْ: أَوْ مَا قَرَأْتُمْ كِتَابَ اللَّهِ الْمُنزَّلَ عَلَى جَدِّي رَسُولِ اللَّهِ: "أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ" وَقَالَ سُبْحَانَهُ: "لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ". وَإِذَا أَقَمْتُ بِمَكَانِي فَبِمَا ذَا يُتْلَى هَذَا الْخَلْقُ الْمَتْعُوسُ وَبِمَا ذَا يُخْتَبَرُونَ»^٢.

وهكذا فإن الامام الحسين عليه السلام حدد لذوي البصائر حكمة الـهية لخروجه تتصل بمهمة الأنبياء جميعاً، والأوصياء كلهم، لأنهم يسيرون على نهج الانبياء عليهم السلام.

فهناك أهداف وتطلعات يسعى المقربون والسابقون والصادقون الى تحقيقها، وهذه الأهداف هي أعلى وأسمى من الأهداف السابقة، رغم أن كليهما مشروعان.

إن الصديقين والـاوصياء لا يـأبهون بحسابات الربح والخسارة، ولا

١- المصدر، ص ٣٨٥.

٢- بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٣٠-٣٣١.

الفصل الثاني: ثمار الإبتلاء

يجعلون هدفهم الرئيس إسقاط هذا الطاغية أو ذاك، بل يستهدفون الامتثال لأوامر الله تعالى، أي إنهم يريدون تحقيق إرادته عز وجل في الأرض.

وهناك أهداف سياسية وأخرى رسالية ينبغي على المؤمن أن يسعى لتحقيقها، ذلك لأنه يريد إقامة حكم الله في الأرض، وإزاحة حكم الطغاة، وتحرير الانسان من عبودية الظالمين، وبالتالي تحقيق الرفاه والسعادة للبشر.. وهذه هي الأهداف التي يتطلع المؤمنون المجاهدون لتحقيقها.

ومن حكم الله سبحانه في خلق الانسان، وسائر الأنظمة والسنن التي تحوم حول الانسان، ابتلاؤه وفتنته واختبار إرادته. والامتحانات هذه على أقسام، فقد يكون الامتحان فردياً كأن يبتلى الانسان بمال حرام يحتاج إليه، أو امرأة محرمة تشتهيها نفسه، أو سلطة تهويها نفسه.. والانسان الفرد هو الذي يمتحن في هذا المجال.

الامتحان الجماعي

وهناك إمتحان آخر على مستوى أعلى، وهو إمتحان المجتمع ككل، بحيث يوضع الناس كلهم في غربال ويغربلون ليُعرف مَنْ الصامد، وَمَنْ المتهاوي، وَمَنْ الذي كان يجري وراء المناصب، وَمَنْ

الذي يبحث عن الحق، ومَن المستقيم على الطريق، ومَن الذي يتساقط يمينا وشمالاً كأوراق الخريف..

والآيات القرآنية تبين أن الفتنة في حياة الانسان، لا بد وأن تسير في هذا الاتجاه. فالانسان في اللحظات الحرجة حيث تختلف الأهواء، وتتناقض المذاهب، وتعم الحيرة في إختيار الطريق المستقيم، لا بد أن يختار الطريق الذي يأمره به إمامه وقائده، أي إن عليه أن لا يبحث عن ما تهويه نفسه، بل عن ما يأمره به دينه.

وفي هذا المجال يقول عز وجل: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^١.

فلا بد أن نتنازل عن أهوائنا وشهواتنا الى ما يريده الله، وأن نبحث عن القسطاس المستقيم، والفرقان، والحجة بيننا وبينه عز وجل. والحجة هي كلام الله، وسيرة الرسول، وطاعة مَن أمر الرسول ﷺ بطاعته.

ثم يقول تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ أُمِّرَتُهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^٢.

١- النور: ٥١.

٢- النور: ٥٣.

الفصل الثاني: ثمار الابتلاء

فهناك من الناس من يسير مع الرسول ﷺ، ومع من هو في خطه ما سارت مصالحهم، فان تضررت مصالحهم هذه كفوا عن نصرته. وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام الى هذه الطائفة من الناس في قوله: «إِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ لَعَقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَاشُهُمْ فَإِذَا مُحِّصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدِّيَّانُونَ»^١.

إن الانسان لا يمكن فصله عن ماضيه، ولا يمكن أن يولد في كل يوم من جديد، بل لا بد أن يتأثر في سلوكياته بالعوامل الاجتماعية والتاريخية والخط الذي كان ينتمي إليه. والقرآن الكريم يؤكد إن أولئك الذين يأمرهم الرسول بالجهاد ثم يحلفون بالله أنهم يطيعونه، فاذا أمرهم بالخروج في ساعة الحسم والمواجهة إذا بهم ينكثون، ويخلفون وعدهم. إن هؤلاء كانت حياتهم، ومسيرتهم معروفتين، وهي مسيرة المنافقين الذين يترصدون الدوائر بالمؤمنين، فان وجدوا مؤمناً قد ابتلي انفجرت ألسنتهم وأقلامهم ضد كل المؤمنين ليشفوا غلّ صدورهم، ويشيعوا السلبيات بين أفراد المجتمع.

والقرآن الكريم يشير الى أن أمثال هؤلاء ينبغي معرفتهم من خلال خطوطهم السابقة، فلا يمكن للانسان أن يكون في خط منحرف لفترة

١- بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٨٣.

طويلة ثم يسير فجأة على الخط المستقيم ، ويبادر الى الدفاع عن رسول الله ﷺ والخط الرسالي دفاعاً مستقيماً. إنه في الواقع لا يدافع عن الخط الرسالي ، بل عن مصالحه.

أهم مواصفات القيادة

ويقول تعالى مؤكداً على أهمية القيادة: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^١ ، فمن أهم مواصفات القيادة حسم الصراعات ، والقضاء بين الناس بالحق ، وأن تتدخل في اللحظات الحرجة لتنقذ المسلمين من المآزق. وعلى المسلمين بدورهم أن يلتفتوا في هذه الظروف حول القيادة ، وأن لا يتطرفوا فيمرقوا عن الدين ، بل يكونوا مع القيادة أينما كانت.

وإذا ما وجدنا حركة رسالية في هذا المستوى فلنبشرها بالنصر ، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^٢ . ونحن بصفتنا مؤمنين علينا أن نطيع الله ، ونستقيم على الطريقة ،

١- النور: ٥٤ .

٢- النور: ٥٥ .

الفصل الثاني: ثمار الإبتلاء

وأن لا نطغى في الأرض، ولا نظلم أحداً، ولا نتطرف ضد هذا وذاك، ولا ننخدع بالحسابات السياسية العاجلة، بل علينا أن ندع طريقنا يأخذ مجراه باتجاه خط الانبياء، وبذلك سنضمن نصر الله تعالى بحوله وقوته.

فلا بد أن نستقيم، وأن ننظر الى واجبنا الشرعي، وهو أن نخدم الاسلام في أي مكان كان وبكل الوسائل الممكنة. فالمهم أن نسير في الاتجاه الصحيح، وأن يرضى عنا الخالق، وحاشى له عز وجل أن يأمرنا بأمر فنطيعه، ونتوكل عليه، ويعدنا بالنصر ثم يخلف وعده. ولو كان المؤمنون العاملون للصالحات شجعاناً متوكلين على ربهم، لما بقي أثر من الكفر في الأرض، ولكن المشكلة كامنة في نفوسنا. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَيُمْكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ أن هذا الدين من شأنه أن يتمكن ويسيطر في الأرض سيطرة كاملة، وإذا ما ثبت وتمكن واستقر وتعمقت جذوره، فإن هذا الدين سوف يكون لمصلحة العاملين في سبيل الله. وبهذا التعبير، أي قوله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ يبين لنا الله أن مسيرتنا تكتنفها المشاكل والمخاوف، ولكن العاقبة ستنتهي الى أن يعيش المؤمن في زمن وفي أرض يُعبد فيهما الله وحده، وهذه النعمة تأتي نتيجة للتضحيات.

بعد ذلك يقول عز وجل: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ﴾ فبعد أن يسقط الله تعالى الطغاة، ويحطم الأصنام بيد
المؤمنين، يظهر أناس يكفرون بالنعمة بدل أن يشكروها، وتجرفهم
مذاهب الدنيا، فلا يفكرون إلا في مصالحهم، وقضاياهم الشخصية.

حكمة الوجود

والنتيجة النهائية التي نستوحيها من الآيات القرآنية السابقة،
أنَّ علينا أن ننظر دائماً الى حكمة الوجود، ولا نعيش في التمنيات
والأحلام. فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الدنيا لكي يفرض على أهلها
عبادته كرها، بل يريد منهم الاختبار والامتحان. فعليهم أن يسعوا
ويتحركوا ويبدلوا الجهود لكي يحققوا حياة آمنة، وعليهم أن يتقبلوا
البلاء والفتنة ليُعرف مدى إيمانهم، وصدق أقوالهم. ففي حالات
الرفاه تُرفع شعارات كثيرة، أما في حالة الشدة فإن الأمور تختلط مع
بعضها. فيجب علينا أن نجعل دائماً أفق تفكيرنا أفقاً ربانياً من خلال
نظرة إلهية وبصيرة ربانية، وأن ننتبه الى حكمة الوجود.

إنَّ على الواحد منا - كمثال - أن لا يسيء الظن بالله تعالى بسبب
إنزلاق رجله وهو في طريق ذهابه الى المسجد، فبسقوطه هذا سيحصل
على ثواب مضاعف.

الفصل الثاني: ثمار الابتلاء

وقد روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلَاهُ وَتَعَهَّدَهُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَتَعَهَّدُ الْمَرِيضُ أَهْلَهُ بِالطَّرْفِ، وَكَلَّ بِهِ مَلَكَينِ فَقَالَ لَهُمَا: أَسْقِمَا بَدَنَهُ وَضَيِّقَا مَعِيشَتَهُ وَعَوِّقَا عَلَيْهِ مَطْلَبَهُ حَتَّى يَدْعُونِي، فَإِنِّي أَحِبُّ صَوْتَهُ، فَإِذَا دَعَا قَالَ: اكْتُبَا لِعَبْدِي ثَوَابَ مَا سَأَلَنِي وَضَاعِفًا لَهُ حَتَّى يَأْتِيَنِي وَمَا عِنْدِي خَيْرٌ لَهُ. فَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا وَكَلَّ بِهِ مَلَكَينِ فَقَالَ: أَصْحَا بَدَنَهُ، وَوَسَّعَا عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ، وَسَهَّلَا لَهُ مَطْلَبَهُ، وَأَنْسِيَاهُ ذِكْرِي فَإِنِّي أَبْغِضُ صَوْتَهُ حَتَّى يَأْتِيَنِي وَمَا عِنْدِي شَرٌّ لَهُ»^١.

فان دعوت الله من أعماق قلبك فسوف تحصل على بعض الثواب، في حين إنه عز وجل يريد لك أن تحصل على المزيد من هذا الثواب، ولذلك يؤخر إستجابة دعائك.

إن الثواب الذي حصلنا عليه قليل، وميزان صالحاتنا ما يزال خفيفاً، والله يريد أن يثقل هذا الميزان من خلال الابتلاء كالاضطهاد والهجرة، وما الى ذلك. والايان يزداد ويتعمق في حالات كهذه، والثواب في الآخرة يزداد، وميزان الحسنات سيكون أرجح وأثقل من ميزان السيئات، وعلى الانسان المؤمن أن لا يرفض قدراً من أقدار الله جل وعلا عليه.

١- بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٣٧١.

إنَّ الرسالي - بسبب معارضته للطغاة - قد يدخل السجن ويُعَذَّب أو يستشهد، ولكن كل ذلك هو بلاء بسيط بالقياس الى نار جهنم وعذاب الله وسجنه الرهيب. فالانسان لا يمكن أن تنتهي حياته هناك كما يقول تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^١.

فالعذاب لا ينتهي، والانسان المنحرف يتحسس بالألم دائماً. والى هذا المعنى يشير الإمام السجاد (عليه السلام) في دعائه: «وَإِنْ يَكُنْ مَا ظَلَلْتُ فِيهِ أَوْبَتْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الْعَافِيَةِ بَيْنَ يَدَيَّ بَلَاءٍ لَا يَنْقَطِعُ، وَوَزِيرٍ لَا يَرْتَفِعُ، فَقَدِّمْ لِي مَا أَخَرْتُ، وَأَخَّرْ عَنِّي مَا قَدَّمْتُ. فَغَيْرُ كَثِيرٍ مَا عَاقَبْتُهُ الْفَنَاءُ، وَغَيْرُ قَلِيلٍ مَا عَاقَبْتُهُ الْبَقَاءُ»^٢.

فكل ما كان في الدنيا فهو قليل، لأنَّ الدنيا تنتهي. وكل ما كان في الآخرة فهو كثير، وإن بدا ظاهره قليلاً لأنه لا ينتهي. فلتجبه أنظارنا الى يوم القيامة، فهذه الدنيا ليست إلا معبراً، فلو دامت لغيرنا لدامت لنا أيضاً. فهي لم تَصِفُ حتى للأنبياء والصديقين، فكيف تصفو لنا؟ فهي دار الابتلاءات والامتحانات، فلنحاول أن نجتازها بوجوه مبيضة لدى رب العالمين.

١- النساء: ٥٦.

٢- الصحيفة السجادية، رقم ١٨، من دعائه عليه السلام إذا دُفِعَ عنه ما يحذر أو عجل له مطلبه.

-٥-

مصنع الرجال

الانسان لم يُخلق عبثاً، ولذلك فانه لم يُترك سدى. والهدف من الحياة، وخصوصاً حياة الانسان إمتحانه، وابتلاء سرائره، وليُتم الله حجته عليه. وفي هذا المجال يقول تعالى في محكم كتابه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^١.

وهكذا فإنَّ على الانسان أن يتسلَّح بسلاح الحذر واليقظة. فلو غفل لحظة واحدة، فانه سيخسر عمره كله. وهذا هو الخسران المبين. إنَّ أولئك الذين اختاروا الحق هدفاً، وخططوا للوصول إليه بوعي، واستقاموا على طريقهم، كانت عاقبتهم خيراً. أما الذين خارت عزيمتهم، وضعفت إرادتهم، وأحاطت بأبصارهم الغشاوات،

١- الأنبياء: ٣٥.

فانهم سوف لا يخسرون حياتهم الدنيا فحسب ، وإنما سيخسرون أيضاً الآخرة ، وسيعصّون على أيديهم من الندم ، وهيهات أن ينفعهم الندم.

حقيقة الابتلاء في القرآن

إنّ المؤمنين لا يكتفون بالايان بالله ورسالاته وكتبه لفظاً وقلباً ، وإنما يضحّون بكل ما يملكون في سبيل الله تعالى . فالايان قد عمّ قلوبهم ، ولم تبق هناك أية ثغرة يتسلل من خلالها الشيطان الى قلوبهم . فلا يكفي أن يدّعي الانسان الايمان بلسانه ، بل عليه أن يعمل على سدّ كلّ الثغرات التي من الممكن أن يدخل الشيطان من خلالها الى قلبه ، وعليه أن يعقد العزم منذ البدء على أن يفصل إيمانه على مصالحه الذاتية ، وحبه لذاته ، وعلاقاته الشخصية مع الآخرين ، وإلاّ فانه سيكون عرضة لوساوس الشيطان ومكره ، فيكون مصيره بالتالي جهنم وبئس المصير.

ولقد أكد الله سبحانه وتعالى على هذه الحقيقة المرة بعد الأخرى ، وفي مواضع عديدة من القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾^١ فاذا كان في قلب الواحد منا شيء من الخبث ، فليحاول أن يخرجّه في أسرع

١- آل عمران: ١٧٩ .

الفصل الثاني: ثمار الابتلاء

وقت ممكن، وإلا فإن يوماً سيأتي لا يستطيع فيه ذلك، كما قال الإمام علي عليه السلام: «الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ»^١. وهذا هو اليوم الذي تُبلى فيه السرائر، وهو يوم القيامة.

وللأسف فإن البعض قد يهمل العمل في سبيل الله ظناً منهم أن الله تعالى سيبعث لهم كتاباً، ولكنه عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^٢، فهو سبحانه لا يطلع الناس أيّاً كانوا على الغيب بشكل مباشر، بل يرسل إليهم رسلاً يبلغون رسالاته، ويتلون عليهم آياته. وهكذا فإن القرآن الكريم هو حجة الله علينا نحن البشر.

ثم يقول سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^٣ مخاطباً المؤمنين الذين لم يكتمل الايمان في قلوبهم بعد، وما تزال الثغرات موجودة فيها، الأمر الذي مكن الشيطان من دخولها، وإيجاد الفساد فيها.

ومن جهة أخرى فإن الله تبارك وتعالى يستدرج الكفار، فينزل عليهم بركات من السماء التي هي في الواقع إمتحانات وإختبارات،

١ - بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٤٢٣.

٢ - آل عمران: ١٧٩.

٣ - النساء: ١٣٦.

كما يشير الى ذلك القرآن الكريم في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^١.

وقد تكون الفتنة فردية، كأن يُمتحن الانسان بأمواله وأولاده، أو بفساد أخلاقي، أو غيبة، أو قطع رحم، أو فساد في الأرض.. ولكن الامتحان الأكثر صعوبة، والذي يشمل جميع أفراد المجتمع بما فيهم الصالح والطالح، هو الامتحان الجمعي، ومن أبرز أنواع هذا الامتحان تسلط الظالمين، فاذا ما قاومه المجتمع، وتمرد عليه، وتمكّن منه، واتّخذ الطريق الى تطبيق الاسلام بكل قوانينه وتشريعاته فقد نجا، وإلاّ فانه سيهلك، وسيكون له الحزي في الدنيا، وسيشمله العذاب بجميع أفرادهِ، كما يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^٢ وفي الآخرة سيكون لهم العذاب المهين.

١ - آل عمران: ١٧٨.

٢ - الأنفال: ٢٥.

الفصل الثالث:

حصن الابتلاء

- ١- معدن الإستقامة
- ٢- الإستقامة عزة ورفعة
- ٣- كيف نستقيم في ظروف الابتلاء؟
- ٤- الإعداد سبيل الإستقامة
- ٥- الإستقامة ثمن الأهداف العظيمة
- ٦- الإستقامة ضمان النجاح
- ٧- الجنة ثمرة الإستقامة
- ٨- الجنة ميراث الإستقامة

-/-

معدن الإستقامة

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۚ ۱

يتفاوت بنو البشر في ذواتهم وطبائعهم طبقاً لتفاوت معادنها، ومثلهم في ذلك مثل الأرض التي منها الطيب والحبيث ومنها الخصب

١- آل عمران: ١٣٧-١٤٣.

والعقيم، فهذه تنبت الطيب والنافع، وتلك لا يخرج منها إلا النكد الضار، وقد قال عز اسمه بهذا الصدد: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ، وَيَاذَنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾^١. وكذلك هم الناس والأمم، فمنهم من يمتاز بالطيبة والأصالة، ومنهم من معدنه خبيث ورخو لا أساس له ولا استقرار.

وكان من الطبيعي أن حوادث الحياة ومستجداتها وطوارئها وما تجره من ظروف وأحوال شاقة ومحن وآلام - وهي بمجموعها تمثل المحك والامتحان الكاشف لحقيقة ومعدن وشخصية هذا الإنسان وتلك الأمة - لا تزيد المعدن الطيب إلا طيبة وصلابة ومتانة، بينما يكاد المعدن الخبيث الضعيف يتلاشى ويضمحل وينصهر، ذائباً في بوتقة ملمات الدهر، لأن من طبعه الميل مع كل ريح، والتهايوي لأدنى تحد.

وقد تجد إنساناً ذا مظهر بسيط جداً في أداء ما عليه من فرائض وواجبات دينية ضمن الأجواء التقليدية، ولكنك قد تكتشف معدنه الطيب والأصيل حينما تواجهه بوسط يخالف معتقداته ومبادئه، بل لعلك ستراه ملتزماً كل الالتزام متمسكاً بكل ما يمليه عليه دينه، فيجاهد في سبيل الله لا تأخذه في ذلك لومة لائم، فضلاً عن إقامته

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

الرائعة لصلاته وصيامه وسائر واجباته الدينية الأخرى.
إنَّ معدن الإنسان العظيم يتجلى لدى الشدائد والملمات وتواتر
الفتن والضغوط التي تخلقها ظروف الحياة.. تماماً كما الذهب الذي
يتجلى نقاؤه وخلوصه بتعريضه للنار، بينما تتلاشى المعادن الواطئة
وتتبدل وتفقد ما كان يعتبر خواص ذاتية لها في السابق.

معدن الإنسان ليس مادياً

إذا كان الذهب ذهباً بذاته، وأنه لم يخلق طبيعته المرغوبة والتميزة
بنفسه، فإنَّ هذا الواقع لا ينطبق على الإنسان عموماً، فهو لا يُخلق
بمعدن أصيل طيب أو بآخر هجين خبيث. ورغم صحة ما ورد عن
رسولنا الأكرم ﷺ في الحديث الشريف القائل: «النَّاسُ مَعَادِنٌ كَمَعَادِنِ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ»^١، ورغم صحة
تأثير العوامل الوراثية وطبيعة البيئة والتربية والنظم الحياتية المحيطة
بالإنسان على طبيعة صياغة شخصيته، فهذه كلها عوامل مؤثرة -
وقد يصل مستوى تأثيرها حداً كبيراً جداً في بعض الأحيان - إلا أن
القرار النهائي يبقى بيد الإنسان دون سواه، حيث يبقى بإمكانه أن
يجعل من معدنه ذهباً، وإن شاء جعله معدناً عديم القيمة، فالأمر رهن

١- بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ١٢١.

يديه كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^١. وهذا السعي الإنساني هو المصدر الحقيقي لوجود القوة أو الضعف، والإيمان أو النفاق، والحيوية أو الخمول، والتطور أو التخلف، في الإنسان وفي الأمة اللذين بيدهما قرار ارتقاء سُلم التسامي، كما بيدهما قرار السقوط والتسافل والانحطاط الى الحضيض.

ومن هذا المنطلق، كان محرماً على ابن آدم القنوط من رحمة الله واليأس من روحه المقدس، كأن يحدث نفسه أو تحدّث نفسه بأنه مادام قد ولد في بيئة فاسدة أو فقيرة أو ضعيفة أو متخلفة، فإنّه تعيس الحظ، ولا فرصة له في التطور، ولا جدوى من بذل سعيه لايجاد التغيير وإصلاح ما حوله من واقع متراجع.. بل الواجب الأول الذي ينبغي له تنفيذه هو الإيمان بوجود رب حكيم وكريم وغني وحמיד، حريّ أن يتوكل العبد عليه، فيمضي في ارتقاء سلم الجد والاجتهاد والعمل والمثابرة، لأن قرار الارتقاء هذا جعله الله رهن إرادته، فكان له أن يصوغ من ذاته معدناً طيباً نقيّاً ثابتاً جديراً بأن يفتح الله له أبواب الحياة الحقيقية في الدنيا والآخرة. وقد قال تبارك اسمه في آية قرآنية كريمة: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ

الطَّيِّبُ^١ أي أن حكمته العظيمة وإرادته الجبارة شاءت أن يكون ابن آدم حراً مختاراً في انتخاب الحياة والمعدن، رغم الصورة والواقع الأوليين اللذين يولد عليهما وفيهما.

قصة تاريخية حكيمة

نقرأ في قصة النبي نوح عليه السلام مع ابنه الذي أبى الاستماع الى قول الحق والركوب في السفينة، نقرأ أن الله سبحانه وتعالى قد حكم على هذا الولد الكافر العاق بالهلاك نظراً لما صدر منه من موقفٍ معاند في أخريات حياته وفي تلك الساعات الحاسمة، وهو الموقف الذي كشف عن حقيقة معدنه، رغم كون أبيه من الأنبياء وأولي العزم، إلا أن عمله غير الصالح حوَّله الى لعنة تاريخية، لأنه كان بإمكانه اختيار طريق الفلاح والنجاة من الغرق في الدنيا والعذاب الأبدي في الآخرة. ومن خلال شيء من التفكير في قوله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَفِيلِينَ* إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^٢ نعرف إن عملية الخلق خاصة بإرادة الله وحدها، ولكن الاستفادة من نعمة الخلق هذه بوسيلة

١- آل عمران: ١٧٩.

٢- التين: ٤-٦.

الإيمان والعمل الصالح رهن بإرادة الإنسان ، فهو حينما يُخلَق ، يُخلَق بفطرة نقية طيبة مثالية ، ثم إن طبيعته تبدأ في المسير في طريقين : الأول هو طريق التسامي والتكامل ، وهو الطريق المنسجم مع فطرته النزيهة ووجدانه وصبغته التي صبغها الله بها. أما الطريق الثاني فهو طريق التسافل والانحطاط بسبب العوامل المضادة لهذه الفطرة ، كالشهوات والأهواء وسورات الغضب وسوء التربية وضحالة البيئة وعوامل التاريخ والسياسة والاقتصاد ، وغير ذلك مما طبيعته التأثير في جوهر الإنسان وتبديل معدنه الأصيل الى معدن زائف. فهو إن لم يسلك سبيل الهدى والرشاد والعمل الصالح وما تمليه عليه الفطرة النزيهة ، كان من المحكوم عليه بالانحراف والانحطاط إلى سبيل أسفل سافلين الذي أشارت إليه الآية المتقدمة الذكر. ولكنه إن قاوم العوامل السلبية كان قد أنقذ نفسه فسمّا وارتقى سلّم التكامل الإنساني ، حتى كان بإمكانه أن يسبق الملائكة.

إذن ، فإنّ بمستطاع معدني ومعدنك أن يصبحا معدنين أصيلين وخالصين بما نعلنه من إرادة خيرة ونقوم به من عمل صالح ، وهما الوسيلتان اللتان يأمر العقل والإيمان بالاستفادة منهما.

إن الله قد حكم على الإنسان وقضى بأن يعرضه لامتحان حتى

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

آخر لحظة من لحظات حياته ، لأنَّ حياة الإنسان شيء خلقه الله ، وهو ذو إرادة مطلقة في التصرف فيها كيف يشاء ، ثم إن الشيطان وجنوده لا ينفكون عن ملاحقة ابن آدم حتى تلك اللحظة الرهيبة التي يفارق عندها الحياة. وها هي النفس الأمارة بالسوء لا يروي غليلها إلا وقوع الإنسان الدائم وتعثره ، وعليه فإن تعريض الإنسان للامتحان هو الأمر الوحيد والكفيل بكشف معدنه ، على الأقل كشفه لنفسه ومعرفة من أي الأنواع هو.

ومن هنا ، فليس محموداً لابن آدم القنوط من رحمة الله واليأس من روحه فيما لو تنبه إلى واقعه وقد كان من المسرفين على أنفسهم ، لأن هذا القنوط يزيده إسرافاً ويغرقه في الكفر ويجرّعه كأس الدمار حتى الشمالة.

كما ليس محموداً له أيضاً أن يحدث نفسه - فيما بقي له من عمر - بأن سفينته قد رست على شاطئ الأمان ، باعتبار أن الله قد امتحنه وابتلاه بما فيه الكفاية ، فلا داعي لابتلاء جديد. كلا ، فالأمر ليس بأمنيته ورغبته ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحدد وقت وكيفية الابتلاء دون غيره. وما يدري ابن آدم أن ضلاله قد يكون بوسوسة شيطانية واحدة ينهار لها في آخر لحظة من حياته ، وما يدريه أن

الله قد يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بداعي قيامه بعمل صالح يتصوره بسيطاً وهو عند الله كبير. ولهذا ورد في المأثور من الدعاء عن الإمام الكاظم عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَدِيلَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ»^١، أي الانحراف في آخر لحظة، كما ورد أيضاً في دعاء الإمام الصادق عليه السلام: «رَبِّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَدًا»^٢، نظراً لأن المؤمن مسؤول عن أن يظل في سعيه وجده واجتهاده ومثابرته، مستقيماً على القيام بالعمل الصالح حتى آخر رفق في حياته، كي يضمن حكم الله بحسن العاقبة عليه، وهي - بلا شك - أهم ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان، لضمان المزيد من الرفعة والسمو الى الدرجات الأعلى ما أمكن.

الأسوة الحسنة في رسول الله

ولقد بلغ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بذاته وجده واجتهاده وسيرته المباركة مبلغاً جعله حرياً بسيادة الأنبياء والرسل جميعاً، وقد علا وسما ما تعجز حتى الملائكة عن تصويره، ففي ليلة المعراج الى السماء اخترق نبينا الأعظم حجب النور وبجاره وسراقات العرش حتى وصل موقفاً لم يعد جبرائيل عليه السلام - وهو المرافق له في معراج - يتجرأ على تخطيه،

١- تهذيب الأحكام، ج ٣ ص ٨٨.

٢- الكافي، ج ٢، ص ٥٨١.

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

ولكن النبي دنا ودنا حتى كان قاب قوسين أو أدنى. ولكن رغم هذا الاقتراب النبوي الشديد من العظمة والجبروت الإلهي، إلا أنه ظل ممتلئاً رهبةً وخشية من العلي الأعلى في تلكم اللحظات التي هي أسعد اللحظات وأعظمها بهاءً وروعة في حياة الإنسان على الإطلاق. فيا ترى ما بالنا نحن وما عليه من الإسراف على أنفسنا؟!

سبيل الإستقامة والثبات

إن العامل الوحيد الذي يساعدنا في الحفاظ على خلوص معدننا ونزاهة جوهره هو التنبّه الدائم والحذر الشديد والوعي من مكر الشيطان وجنوده من الجن والإنس حتى آخر لحظة نتنفس فيها، وهو يعني الإستقامة في مسيرة التقوى والخشية من الله عز وجل حتى يأتينا النداء الإلهي الحاسم: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾^١.

قد لا يكون خافياً أن الإنسان عرضة للإصابة بنوعين من الأمراض، النوع الأول، هو الأمراض المادية التي تصيب الجسد، حيث جعل الله سبحانه وتعالى الإحساس بها دليلاً عليها، حتى أضحي هذا الإحساس نعمة إلهية تساعد المريض على الإسراع في

١- الفجر: ٢٧-٢٨.

المعالجة. أما النوع الثاني، وهو الأخطر والأفتك، فهو الأمراض النفسية والمعنوية. ولعل هذا النوع يُعدُّ من أكبر المصائب التي تلم بالإنسان، إذ أنَّ للشيطان اليد الطولى في وجودها، ومن أخطرها التكبر والغرور والحسد والبخل والحرص، التي تحجب المرء عن الإحساس والشعور بسائر الأمراض النفسية الأخرى. وإن ما يجعل الإنسان يحفظ جوهره، هو ثباته واستقامته في حياته وحذره الدائم من وساوس الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، وتعزيزه لإرادته وتحديه للفتن والبلاء وملومات الدهر.

الإعداد والاستعداد

إن المطلوب من الإنسان أن يضع نفسه في حالة ترويض دائمة، ليزداد صلابَةً وأصالةً. أما أن يعتمد الى ترويض نفسه في ساعة الإمتحان والفتنة، فهذا ما لن يفيد شيئاً، مثله في ذلك مثل طالب المدرسة الذي يتوجب عليه مطالعة درسه واستيعابه وحفظه قبل أوان الامتحان النهائي، لأنه لدى الامتحان لن يعود بإمكانه استيعاب العلم أو حفظ المعلومات.

ولقد تضمن القرآن الكريم العديد من المفاهيم والتوجيهات والبصائر الواضحة ما لو تم استيعابها واستلهاها لخلق روح التصدي

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

والمقاومة، ولحافظ على أصالة المعدن الإنساني، ولزاد في نقائه وخلصه.

ومن جملة تلکم المفاهيم والبصائر في هذا المجال أخذ العبرة والاتعاظ بالتاريخ الإنساني ومجرباته وأحداثه، ومنها قول الله جل جلاله في الآيات التي تلونها في بداية البحث: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾. فالمراد بالسنة حسب معناها الظاهر الآثار المتبقية من تاريخ الأمم السالفة، ووما آلت اليه مصائر الشعوب المنحرفة. فالله سبحانه وتعالى يؤكد ضرورة البحث والنظر والتدقيق في ذلك المآل الذي انتهت إليه الأمم المكذبة لتحاشي الوقوع في المصير الأسود نفسه.

والذي أراه أن دراسة التاريخ وسبر أغواره ضرورة حضارية ودينية وثقافية، بل إن كل الضرورات قد تجمعت وتكرست في هذه الدراسة والبحث في التاريخ الإنساني، وها هو القرآن الكريم قد أعطانا عصارة التاريخ وبيّن لنا محطاته الاستراتيجية ومنعطفاته المهمة، ونحن بوسعنا الرجوع الى التفاصيل التي تعج بها كتب التاريخ والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام لاستيعاب المزيد من العبر التاريخية.

الزهراء عليها السلام نموذج المعدن الطاهر

لقد اتسمت حياة سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام بالصمود والثبات والاستقامة على الحق، مما جعل سيرتها الذاتية قدوة واسوة، لا سيما بعد وفاة أبيها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والتحاقه بالرفيق الأعلى. فلقد انهالت عليها المصائب والآلام والمحن والمظالم، ولكنها واجهت كل ذلك بالصبر والتحمل حتى فارقت الحياة مظلومة مهظومة. وقد روي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه قال: «نحن حجج الله على خلقه، وجَدَّتْنا (فاطمة عليها السلام) حجة الله علينا»^١. وهذا الحديث الشريف يعكس حقيقة كبرى، إذ أن كل ما اجتمع وتراكم على قلب الزهراء عليها السلام من مصائب وهموم قد توزع وتفرق على أبنائها الأئمة المعصومين عليهم السلام. ولقد تحدثت سيدة النساء الظروف الحالكة والمصاعب الأكيدة، ما لم يكن باستطاعة أقوى الرجال تحملها وتحديها.

وعلى ذلك، فإنَّ الأجدربنا - نحن الذين نأمل شفاعة الزهراء عليها السلام - أن ندرس حياتها من هذه الزاوية، زاوية التحدي والصلابة ونقاء المعدن والاستقامة على الحق.

إن إنساناً وأمة يبتني وجودهما ويقوم كيانهما على تضحيات أهل

١ - موسوعة الإمام العسكري، ص ٢٦٥، عن: فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى صلى الله عليه وآله: ٧٤٤، ح ٧، عن:

تفسير أطيّب البيان: ١٣، ٢٢٦.

البيت ﷺ ودمائهم ودماء الشهداء المقتدين بهم، لا بد لهما من أن يكونا صامدين مقاومين يتحديان العالم بطواغيته وجبايرته، وإن ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

التراجع يعني الردّة

يخطأ كثيراً هذا الذي يأسف ويندم على ما قام به من عمل في سبيل الله، مهما كانت أسباب الندم، فالله تعالى ينهى عنه ويعتبره خروجاً عن الإيمان، وهو القائل سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. فلا يقولنّ أحد: لمَ جاهدت؟ ولأجل من ضحيت؟ وعلامَ هاجرت؟ فهذا خطأ وكفر بنعمة الإيمان الذي رزقه الله، لأن الإنسان مسؤول عن القيام بواجبه في هذا المجال على أحسن وجه ممكن، وليس مسؤولاً عن الانتصار أو جني الثمار. ثم هل كان خيراً لك لو أنك أضعت حياتك وشبابك وطاقاتك في اللهو والمتاهات وإشباع الشهوات الرخيصة في الحانات ومراكز الفساد الاخلاقي؟! إنَّ الأولى بك أن تشكر الله أبداً على ما أنعم عليك من الإيمان والهدى والعمل في سبيله، لأنَّ مجرد التشكيك في ذلك يعقبه التمرد على فرائض الله، وبالتالي سيحبط عملك فتكون من الخاسرين الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا. فإن كنت تعاني المصاعب، فعدوك وعدو

الله بدوره يعاني كما تُعاني ، ولكنك ينبغي أن ترجو من الله. وقد قال ربنا العظيم: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِعَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^١. فهذه هي سنة الصراع في الحياة، ولا يجدر بك أن تتصور حلول الأذى والقهر والهزيمة والمعاناة بعدوك فحسب، وأن شيئاً من ذلك لن يمسك أو يصل إليك، لأنَّ السنة الحياتية في الصراع اقتضت أن تكون الدنيا: يومٌ لك ويومٌ عليك: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾* وَلِيَمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

ومن هنا، كانت النوازل والمحن والشدائد التي يقع فيها الإنسان ويتعرض لها عبارة عن عملية تطهير لما كان يرتكبه من ذنوب وخطايا، فالمفترض به التسليم لأمر الله وقضائه والتعامل مع طبيعة تعرضه للمحن من منظار إيجابي وإيماني ينتهي به إلى الصبر والصمود والاستقامة.

إنَّ المؤمن حينما يدرك حقيقة الحياة وفلسفتها، ويدرك أنه ماثل أمام قانون الموت والفناء، ويدرك حقيقة الحكمة الإلهية بتعريض ابن

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

آدم للمحن والفتن، حينما يدرك ذلك كله سترتفع عنه حجب الخوف والتردد، ولن يعتبر - إذ ذاك - المشاكل والصعاب والمحن عائقاً في طريقه، وهو سيمضي غير مبالٍ بكل ما يلاقيه ويصادفه، لا سيما وأن الله تبارك اسمه سوف يسدّد خطاه ويقوي عزيمته.

وإدراك الإنسان لكل هذه الحقائق التي أوضحناها من شأنه دفعه الى صقل ذاته وإظهار أصالة معدنه ونقائه وقوته، وذلك بمواصلة مسيرته في العمل والجد والجهاد والمثابرة، ابتغاء مرضاة الله ونيل العزة والكرامة في الدنيا والآخرة.

إنّ من مسؤوليات الإنسان الذاتية التي لا يمكنه تبرير التقاعس والتكاسل عن أدائها بسبب من الأسباب هي أن يدرك هذه الحقائق كي يطور شخصه ويصقل جوهره ومعدنه، وذلك ما لا يكون دون التوجه الى بصائر القرآن الكريم وهضمها واستيعابها والإلمام بها. ولعل البصائر التي حوتها الآيات المتقدمة من سورة آل عمران تمثل برنامجاً أساسياً لتطوير المعدن الإنساني ولتحمي الصعوبات والفتن بحول الله وقوته.

نسأله سبحانه وتعالى أن يثبت أقدامنا، وأن يعيننا على أنفسنا، وأن يصلح كل عيب فيها، لنكون من الصادقين في البأساء والضراء،

الإبتلاء مدرسة الإستقامة

وأن يجعلنا من الصابرين ويلحقنا بعباده الصالحين محمد وآله الهداة
الميامين والحمد لله رب العالمين.

-٢-

الإستقامة عزة ورفعة

يتساءل البعض : ما هي الجدوى من الإستمرار في الكفاح والجهاد على الرغم من أن الظروف جميعها تعاكسنا؟ ولماذا نبذل الجهود الكبيرة، ولماذا هذا العطاء الذي يبدو لا نهاية له؟ أوليس من العبث أن يتعب المؤمنون أنفسهم، ويبلون شبابهم في الدعوة الى الله تبارك وتعالى، والتفرغ في سبيله، والمثابرة في طلب العلم، وهم يرون أن أعمالهم تذهب - في الظاهر - سدى؟ فالكفار والمستكبرون لا يتركون المؤمنين ولو للحظة واحدة يعملون ضدهم، فهم يلاحقونهم في كل مكان، ويطاردونهم أينما ذهبوا. فلماذا إذن الاستمرار في الجهاد والدعوة الى الرسالة الإسلامية مادام الأمر كذلك؟

إن هذه القائمة الطويلة من التساؤلات تمثل أفكاراً سلبية تبثها

أجهزة الإعلام الظاهرة منها والخفية هنا وهناك ، ولا سيّما في هذه الظروف التي يعيش فيها المسلمون الصعاب ، وتتراكم السلبيات ، وتتواصل التحديات.

الأيام دول بين الناس

إنّ التاريخ ، كل التاريخ ، لم يكن في يوم من الأيام خالصاً صافياً بشكل دائم للمؤمنين ، وكذلك الحال بالنسبة الى غير المؤمنين ، فالله سبحانه وتعالى يداول الأيام بين الناس ، وهذه المداولة تمثّل في الدنيا سنّة إلهية أبدية ، فالدنيا يومان ، يومٌ لنا ، ويومٌ علينا ، وعندما يحلّ يوم الشدّة والضعف والانكسار نجد أن هذه الأفكار السلبية تنتشر بسرعة عجيبة.

الإجابات الشافية في القرآن

ولأنّ القرآن الكريم هو علاج لكلّ الأمراض ، وإجابة على كلّ الأسئلة التي أثّرت أو من الممكن أن تثار في المستقبل بشأن عمل المؤمنين ، وبالصرع الحاد القائم بين جبهة الايمان وجبهة الكفر والضلال ، فاننا نجد إجابات شافية عن كل تلك التساؤلات وبالتحديد في سورة هود ، هذه السورة التي نستطيع أن نصفها بأنها

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

سورة الاستقامة والجهاد المتواصل رغم الظروف المعاكسة.
إننا عندما نقرأ هذه السورة المباركة من بدايتها الى نهايتها، فاننا
نطالع فيها صوراً مشرقة من جهاد وكفاح الأنبياء عليهم السلام،
وأتباعهم في أكثر الظروف شدة وتأزماً.
وفي نهاية السورة نجد خلاصة للأفكار التي جاءت فيها، فلنحاول
معاً أن نستعرض هذه الأفكار الواحدة تلو الأخرى فيما يلي:

١- الاستقامة أمر إلهي

يقول تعالى: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾^١، فالله سبحانه يخاطب نبيه
صلى الله عليه وآله بأنه مأمور مادام قد أسلم وآمن وخضع لرب
العزة، ولأنه مأمور فلا بد من أن يتبع الأوامر بدون زيادة أو نقصان،
وبدون جدل ونقاش. وما دام الله رحيماً بالإنسان، ولا يأمره بشيء
إلا إذا كان من مصلحته، فلماذا تريد - أيها الإنسان - أن تستنبط
الأفكار من نفسك؟ أولاً تؤمن بأن بصائر القرآن، ورؤى الوحي،
وشرائع الدين صحيحة؟ فاستقم - إذن - كما أمرت، لأن الاستقامة
أمر إلهي، ولا يهم في هذا المجال ماذا سيحدث في المستقبل، وماذا
ستكون النتائج، بل عليك أن تستقيم.

ثم يبين ربنا أن الأمر بالاستقامة لا يقتصر على الرسول صلى الله عليه وآله، بل يشمل أتباعه أيضاً: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾^١، أي إن القائد عندما يحمل الراية في ظروف الشدة والهزيمة، وعند الصعوبات والمشاكل، فإن هذه الراية سوف تستقطب كل الطاقات حتى المنهزمين نفسياً منهم.

وعلى هذا فإن الله سبحانه وتعالى يصرّح بأن أحد أهم النتائج الايجابية للاستقامة توبة المنهزمين، وعودتهم الى الخط الرسالي. ثم يأمر سبحانه المؤمنين بعدم الطغيان قائلاً: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾، أي لا تكونوا أيها المؤمنون، يا من أنفقتم أوقاتاً ثمينة من حياتكم، وابلستم شبابكم وزهرة حياتكم في سبيل الرسالة، لا تكونوا وقوداً للحروب التي يثيرها الطغاة. فنحن إذا ما تركنا معارضة الظالمين جانباً، فربما سنصبح أداة من الأدوات التي يستخدمها الطغاة.

٢- عدم الركون الى الظالمين

ويؤكد جل وعلا على هذا المعنى قائلاً: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^٢.

١- هود: ١١٢.

٢- هود: ١١٣.

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

فأنتم أيها الرساليون، إذا تركتم الجهاد وعزّته وكرامته فسوف تضطّرون الى أن تركنوا الى الذين ظلموا، وبالتالي فانكم سوف تحتاجون في هذه الحالة الى حماية، وتضطّرون الى التوسّل بهذا النظام أو ذاك لتطلبوا منهم هذه الحماية. فالإنسان الذي لا يمتلك عزّة من جهاده، فإنه يبحث عن العزّة عند الظالمين.

والقرآن الكريم يحذّرنا من هذا السلوك موضحاً أننا لو أيّدنا الظالم فان عاقبتنا سوف لن تكون بأحسن منه، حيث عذاب الله ولعنة الناس، دون أن يكون لنا أي نصير وشفيع: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِّنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾^١.

فعلى الإنسان أن لا يقول في يوم القيامة أنه كان مجاهداً وعاملاً، فإنّ مثل هذه السوابق لا يمكن أن تشفع له بعد أن ركن الى الظالم، وأصبح ذليلاً له، ودائراً في فلكه. فالله تبارك وتعالى لا ينظر الى سوابق الإنسان، بل يحكم عليه حسب الوضع الذي هو عليه الآن. وبناء على ذلك فإنّ الاستقامة تمثّل ضرورة لا غنى للإنسان المجاهد عنها، لأنّ من لا يستقيم، فإنه يصبح طاغياً أو أن يخضع للطغاة ولخط الظالمين ويركن إليهم، وحينئذ سيكون مصيره مصير الظالمين.

٣- الصلاة وقود الاستقامة

ثم لكي يستقيم الإنسان ، ويستمر على الجهاد فعليه أن يتّصل بروح الإيمان. والصلاة التي يقول عنها تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾^١ هي أفضل وسيلة للإتصال بروح الإيمان ولاستمداد القوة المعنوية عندما يفتقر الإنسان الى القوة المادية. وأنا لا أستطيع أن أتصوّر مجاهداً لا يستأنس بالصلاة. فهي بالنسبة إليه الركن الركين الذي يأوي إليه ، والكهف الحصين الذي يحميه من عاديّات الدهر والوساوس الشيطانية. فإذا ما صادف وأن اسودّت الدنيا في عينك ، وتراكمت المشاكل عليك ، وتواصلت الهزائم ، فعليك أن تفرّ الى الله الذي تجده في الصلاة. فعندما تصلي تكون قريباً من رب العزة ، ويكون تعالى قريباً منك ، يربّت على كتفك بيد حرّانه ورأفته.

وتكون الصلاة ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسَيَّاتٍ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾^٢.

فعلى الانسان المؤمن أن يلتزم بالصلاة في النهار والليل ، فاذا ما هجمت عليه الهواجس ، وأخذ يفكّر في المشاكل والصعاب التي يواجهها ، فعليه أن ينهض من مقامه أو منامه ، ويقف أمام رب العالمين

١- هود: ١١٤.

٢- هود: ١١٤.

في ركعات، وحينئذ سيجد برد عفو الله وسكنته، وروح الاطمئنان تغمر قلبه.

٤- الصبر والنظرة البعيدة

ويأمر تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بالصبر قائلاً: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^١.

فليس من الصحيح أن نقول إن أعمال المجاهدين تذهب عبثاً، وأنهم ينفخون في رماد، وأن جهودهم هي مجرد هواء في شبك. كلا، فاننا إذا عملنا ولو ذرة واحدة، فاننا سنجد هذا العمل أمامنا يوم القيامة ليشفع لنا. فالذي يحفظ الوديعة هو رب العزة الذي لا يمكن أن تضيع عنده الودائع.

فعلينا أن نصبر، وأن لا نستعجل الأمور، لأنّ هذا العالم الذي نعيش فيه هو عالم الزمن، كما أنّ الخالق تعالى عندما خلق السماوات والأرض فانه لم يخلقهما في لحظة واحدة، رغم أنه كان بإمكانه أن يقول كن فيكون ليخلق السماوات والأرضين، ولكنّه عز وجل شاء أن يخلقهما في ستة أيام، لأنه ركب هذا الكون على أساس الزمن. وعلى هذا فإنّ علينا أن نصبر، خصوصاً وأننا نريد أن نغيّر عالماً

بأكمله ، وهذا التغيير لا يمكن أن يتمّ من خلال حركة بسيطة. فنحن الآن نعيش محاض الحضارة الإسلامية ، والحضارة تعني تحقيق الوحدة بين الشعوب ، والوصول الى الرقي التكنولوجي ، والتقدم الزراعي والصناعي والاقتصادي. ومن المعلوم أنه ليس من السهولة بمكان تحقيق هذه الأهداف الضخمة في لحظة واحدة.

ومع ذلك فاننا نمتلك تاريخاً حضارياً عريقاً ومليئاً بالعطاء ، ونمتلك برنامجاً يتمثل في القرآن الكريم الذي هو هدىً ونور وبصائر. وكلّ هذه الامتيازات التي نتمتع بها من شأنها أن تختصر لنا الزمن ، وتجعلنا نبلغ المستوى الحضاري المنشود في فترة قياسية ، قد تكون أقصر بكثير من تلك الفترة التي مرّ بها الغربيون للوصول الى ما بلغوه الآن ، ولكن علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار أنّ علينا أن نبذل الجهود المتواصلة والمكثّفة في هذا المجال ، وحينئذ فاننا سوف لا نبلغ ما بلغه الغربيون فحسب وإنما سنتقدم عليهم باذن الله.

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال : قال النبي صلى الله عليه وآله : «اغزوا ثورثوا أبناءكم مجداً»^١. وهذا يعني أنه ليس بالضرورة أن نحصل على العزة العاجلة من وراء جهادنا ، بل علينا أن نبذل كل ما في وسعنا حتى لو لم نحصد النتائج نحن ، بل لكي ينتفع الجيل القادم

١- وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٩، أبواب جهاد العدو، ح ١٥.

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

من عطائنا. فنحن في الحقيقة نسعى من أجلهم حتى يورثوا منّا المنعة والعزة، ويكونوا أقوياء أمام الأعداء، ولا يكونوا أدوات في أيديهم يستخدمونهم كمادّة للاختبار. فهناك الكثير من الحروب التي أجّجها المستكبرون كان هدفهم من ورائها تجربة أسلحتهم، كما حدث في الحرب التي أثاروها بين العراق وإيران، وبين العراق والكويت.. فقد كانوا يحقّقون عدة أهداف من وراء إثارة هذه الحروب، الهدف الأول هو أنهم كانوا يبيعون الأسلحة ويصرفونها، والهدف الثاني أنهم يعملون على تأخير تطوّر حضارتنا، والهدف الثالث يتمثل في إشفاء غيظهم الداخلي من المسلمين، والهدف الرابع اختبار الأسلحة ومن ضمنها الأسلحة الكيماوية.

ومن أجل أن نحول دون أن يصبح أبنائنا أدوات طيّعة بيد هؤلاء المستكبرين، فلا بد لنا من أن نجاهد، لأنّ جهادنا إنّما هو من أجل تحقيق مستقبل مزدهر مشرق لأولادنا.

هـ- الاسلام مرهون بالجهاد

وعلينا أن نعلم في هذا المجال أن الانجازات والمكاسب الكبرى التي حقّقها الاسلام لحد الآن، انما هي مرهونة ببقائها ووجودها لجهاد المجاهدين. والى هذا المعنى يشير تعالى في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ

الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ^١ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ^١.

فالذين ينهون عن الفساد يكنّ الله تعالى لهم أعظم الحبّ لأنهم البقية الباقية التي تدافع عن الأمة وعن القيم الرسالية المقدّسة.

ثم يشير تعالى الى النتيجة النهائية للجهاد من خلال قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾، اي إن فائدة جهادنا وإستقامتنا تتمثل في أنّ البلاء سوف لا يشملها في حالة نزوله، بل إنّ هذا البلاء سوف ينزل على المفسدين فحسب، ومن سكت عنهم، ورضي عن ممارساتهم.

- ٣ -

كيف نستقيم في ظروف الابتلاء؟

قد يكون الانسان في وضع تضحي جميع شؤونه متسقة ومنتظمة حسبما يحب ويرتضي ، بحيث ينمو ويتزعرع في بيئة مفعمة بعبق الايمان واريح المحبة والاخاء الايماني .

وقد يعيش المرء حياة تصحبها القسوة والابتلاء ، بحيث تحيطه كافة صور المحنة والعذاب . فبالأكيد ان كلا الوضعين المختلفين لا يمكنهما ان يتساويا على مستوى التجربة والأجر الذي وعد الله تعالى به المؤمنين يوم القيامة .

الفتنة سنة الهية

من مراجعة آيات الذكر الحكيم نكتشف إحدى سنن الباري عز وجل ، وهي سنة الفتنة لكافة أبناء البشر الذين يعيشون على هذه

البسيطة، بل لا مجال لافتراض صورة ما لحياة أحد أبناء البشر وقد خالطتها النشوة المطلقة والرضا اللامتناهي.

﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^١.

بل من الخطأ أن يتصور المرء أن مجرد اعتقاده القلبي، واقاره بالربوبية الالهية، وإيمانه بأركان الدين تكفي ان تحيل حياته الى روضة بهيجة في هذه الدنيا. ان حقيقة الايمان بالشيء تقتضي اثباته في الواقع الخارجي، وانعكاسه في العمل والتطبيق.

لذا كانت سنة الله في التاريخ والأمم والحضارات السابقة والحاضرة الافتتان لاثبات دعوى الايمان: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^٢.

فلو افترضنا قبول منطق الادعاء الصرف بالايمان والتوحيد، لتساوت الأمم في الأجر والمراتب كما يتساوى أبناء البشر جميعاً في الاعتقاد، بل ولانتفى القبح والحسن، والنار والجنة يوم القيامة. فما أكثر الأمم التي قبلت دعوات أنبياءها ورسُلها، ورفضت ما أُمِرَتْ به من اصلاح وتغيير؟

وفي هذا الخضم سقطت أُمم واستقامت أخرى على الفتنة،

١- العنكبوت: ٢.

٢- العنكبوت: ٣.

وتميز الكاذب عن الصادق: ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ﴾.

فتبقى الحجة البالغة التي لا يمكن للمرء أن يفر منها يوم الحساب.
ف (العلم) الصادق و(العلم) الكاذب، تكشفه (الفتنة) التي تصيب
الناس كافة.

وكلما ازداد مستوى الاعتقاد ومراتبه، كلما ازداد مستوى الافتتان
ومراتبه كذلك. وهذا ما يفسر جملة من الأحاديث الشريفة التي تؤكد
على هذه الحقيقة.

منها قول الإمام الكاظم عليه السلام قال: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ بِمَنْزِلَةِ كِفَّةِ الْمِيزَانِ،
كَلَّمَا زِيدَ فِي إِيْمَانِهِ زِيدَ فِي بَلَاءِهِ»^١. ذلك لأنه بقدر حجم الادعاء يكون
حجم الافتتان الإلهي. وهذا بدوره لطف إلهي، وذلك لازدياد مراتب
الأجر والجزاء في العقبى، وهي ثمرة طبيعية يحصل عليها الإنسان
المؤمن.

وما روي عن بنان بن بشر، وابن أبي خالد قالا: سمعنا قيساً يقول:
سمعنا خبأياً يقول: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو متوسد برده في ظل الكعبة،
وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقعد

وهو محمّر وجهه فقال: «إِنْ كَانَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَيَمَسُّهُ أَحَدُهُمْ بِأَمْسَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَيَشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَالذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ»^١.

وما روي عن رسول الله ﷺ أنه مرَّ بعمّار وأهله وهم يُعَذِّبون في الله ، فقال : «أَبَشِّرُوا آلَ عَمَّارٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ»^٢.

الفتن متعددة

وبالطبع يختلف الابتلاء باختلاف المؤمنين ، وقد يكون الابتلاء من نوعه الجسدي ، أو من نوعه النفسي - الذي لا يقل عن الأول - وقد يجتمعان معاً.

الشاب المؤمن يُفتن بغريزته الجنسية وشره الشباب ، والتاجر بمعاملات التجارة ، والمجاهد في سبيل الله والقائد كذلك ، والامام المعصوم عليه السلام أيضاً لا يخرج عن دائرة الافتتان الالهي ، رغم قربه ومنزلته عند المولى تعالى.

١- بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢١٠.

٢- إعلام الوري بأعلام الهدى، ج ١، ص ١٢٢.

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

نقل أحد الأخوة المؤمنين من داخل سجون النظام الصدامي في العراق قائلاً: كنا في زنزانة مع جمع من الرجال المؤمنين، الى أن أخرجونا الى ساحة السجن، ثم جاءوا ببنت أحد الرجال المؤمنين الذين اصطف معنا وبعد أن يأسوا من تعذيبه لانتزاع الاعتراف منه، ادخلوها علينا عارية! وساقوا بها أمام الحضور يمينه ويسرة، ثم قربوها إلى أبيها، وهددوه بشتى الافعال بها إن لم يعترف!! ولكن البنت المؤمنة هذه توجهت إلى أبيها قائلة: أبي، هذا في سبيل الاسلام شيء قليل.

فهذا مشهد واحد من التعذيب النفسي الذي يلحق بالمؤمنين المجاهدين، وإذا قلنا أرشيف السجون التي تكتض في أغلب بلدان العالم الاسلامي بالشباب المؤمن، لشاهدنا صوراً مذهلة عن فداحة القسوة التي يرتكبها الحكام المستبدون ضد رجال الحق ودعاة الاسلام. كما نشاهد عظمة وشموخ صبر هؤلاء الأفذاذ من أجل تحكيم القيم التي يعتقدون بها على أرض الله المترامية الأطراف.

إن هذه الصور البطولية الرائعة لو قارناها بصور أخرى تحكي تساقط أدعياء الايمان في وحل الرذيلة - كما تتساقط أوراق الخريف - مقابل شهوة آنية، أو حفنة نقود، أو مستمسك رسمي من دولة ما، كما يجري على البعض ممن ينتمي الى بلاد الاسلام وشريعة المسلمين والمقيم

في البلاد الاوربية ، ليرى فداحة المفارقة الكبرى بين تلك الصور وهذه !

كربلاء، الفتنة.. الاستقامة

لقد كان أئمة الهدى المعصومون عليهم السلام وسيرتهم الذاتية خير صورة مباركة ومقدسة ، ومثالاً حياً ومتحركاً أمام كافة الأجيال .

إن موقف الإمام الحسين الشهيد عليه السلام في رمضاء كربلاء ، ومواقف ابنه الإمام زين العابدين عليه السلام ، وشقيقته الطاهرة الصديقة الصغرى زينب عليها السلام في مواجهة طغاة الكوفة والشام .. إن هذه المواقف تحكي قدسية الاعتقاد والايان بالله ، وعظمة استرخاص الغالي والنفيس ، واستقبال البلاء والفتنة برحابة صدر في سبيل الله .

لنقرأ معاً هذه الرواية عن الإمام زين العابدين عليه السلام :

«فَإِنَّهُ لَمَّا أَصَابَنَا بِالطَّفِّ مَا أَصَابَنَا، وَقُتِلَ أَبِي، وَقُتِلَ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ وُلْدِهِ وَإِخْوَتِهِ وَسَائِرِ أَهْلِهِ، وَحُمِلَتْ حَرَمُهُ وَنَسَاؤُهُ عَلَى الْأَقْتَابِ يُرَادُّ بِنَا الْكُوفَةِ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ صَرَغِي وَلَمْ يُؤَارَوْا، فَعَظُمَ ذَلِكَ فِي صَدْرِي، وَاشْتَدَّ لِمَا أَرَى مِنْهُمْ قَلْقِي، فَكَادَتْ نَفْسِي تَخْرُجُ، وَتَبَيَّنَتْ ذَلِكَ مِنِّي عَمَّتِي زَيْنَبُ الْكُبْرَى بِنْتُ عَلِيٍّ عليها السلام فَقَالَتْ: مَا لِي أَرَاكَ تَجُودُ بِنَفْسِكَ يَا بَقِيَّةَ جَدِّي وَأَبِي وَإِخْوَتِي؟ فَقُلْتُ: وَكَيْفَ لَا أَجْزَعُ وَأَهْلَعُ وَقَدْ أَرَى سَيِّدِي وَإِخْوَتِي وَعُمُومَتِي وَوُلْدَ عَمِّي وَأَهْلِي مُضْرَعِينَ بِدِمَائِهِمْ مُرْمَلِينَ بِالْعَرَاءِ مُسَلِّبِينَ لَا يُكَفَّنُونَ وَلَا يُؤَارُونَ وَلَا

يَعْرِجُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ وَلَا يَقْرُبُهُمْ بَشَرٌ كَانَتْهُمْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَ الدَّيْلَمِ وَالْخَزَرِ»^١.

وهنا تتجسّد فداحة الموقف الذي تحمّله أهل بيت الحسين عليه السلام في رمضاء كربلاء، بحيث لم يرحم الأعداء حتى الأجساد الطاهرة، بل تعمّدوا في تفريقها تنكيلاً بالحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته!

وهنا قد يتساءل المرء: كيف تقع هذه النوازل والفتن على الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته ونسائه وأطفاله، بل يتجرأ أرذل خلق الله (شمر بن ذي الجوشن) في الجلوس على صدر سبط الرسول الحسين عليه السلام ليحتز رأسه الشريف، مع العلم أن الإمام عليه السلام له منزلة عظيمة عند الله ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله، ثم لم يغيّر الله سبحانه ما كتب على الحسين عليه السلام من النصر المادي لصالح أهل الحق وأتباعه؟!

إن الإمام الحسين عليه السلام هو الذي اختار طريق الحق وآمن وسار على ما آمن به وانتهى به الأمر إلى واقعة كربلاء. لقد كان من اليسير جدا على الله سبحانه أن يدفع البلاء عن أتباع الحق في يوم عاشوراء، ويبيد أهل الباطل عن بكرة أبيهم بلحظات وثوان. إلا أن مشيئة الله اقتضت أن يختار الحسين عليه السلام الطريق الذي يسلكه، والله يعطي لعبده ما يريد ويجازيه بقدر ما يريد من تقرب الى المولى عز وجل، فأضحى جسد

الحسين عليه السلام وأهل بيته خير قربانٍ في هذا الطريق.

ثم تقول الرواية أن السيدة زينب عليها السلام خاطبت الامام السجاد عليه السلام :
 «لَا يُجْزِعَنَّكَ مَا تَرَى، فَوَ اللَّهِ إِنَّ ذَلِكَ لَعَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَدِّكَ
 وَأَبِيكَ وَعَمِّكَ، وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ أَنَاسٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا تَعْرِفُهُمْ فَرَاعِنَةُ
 هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهُمْ مَعْرُوفُونَ فِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ أَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ
 الْمُتَفَرِّقَةَ فَيَوَازُونَهَا، وَهَذِهِ الْجُسُومَ الْمُضَرَّجَةَ، وَيَنْصُبُونَ لِهَذَا الطِّفِّ عِلْمًا
 لِقَبْرِ أَبِيكَ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ لَا يَدْرُسُ أَثَرُهُ، وَلَا يَغْفُو رَسْمُهُ عَلَى كُرُورِ اللَّيَالِي
 وَالْأَيَّامِ، وَلَيَجْتَهِدَنَّ أُنْمَةُ الْكُفْرِ وَأَشْيَاعُ الضَّلَالَةِ فِي مَحْوِهِ وَتَطْمِيسِهِ فَلَا
 يَزْدَادُ أَثَرُهُ إِلَّا ظُهُورًا وَأَمْرُهُ إِلَّا عُلُوءًا»^١.

فأن تصبح كربلاء قبلة الزائرين وكعبة الثوار والعاشقين ، هو أمر
 طبيعي ونتيجة بديهية لما حمل الإمام الحسين عليه السلام من مسؤولية
 الجهاد في سبيل الله حتى التضحية بنفسه وأصحابه وأهل بيته. فهذه
 سنة الله في الحياة، أن ترتفع معالم الحق وأصحاب الحق ، وتعلو قباب
 المجاهدين والهداة، لتكون شاهداً حياً أمام مرأى العالم. وفي المقابل
 تنطمس آثار وقبور أعداء الله ، أمثال يزيد ومعاوية وبني أمية وبني
 العباس لتكون شاهداً حياً أيضاً على زيف الباطل. فهذه الثمرة يجنيها

١ - كامل الزيارات، ص ٢٦١-٢٦٢.

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

طلاب الحق في الدنيا، أما في الآخرة فهو أجل وأعظم من هذا كله.

وتضيف الرواية على لسان مولانا الإمام زين العابدين عليه السلام:

«قُلْتُ: وَمَا هَذَا الْعَهْدُ وَمَا هَذَا الْخَبَرُ؟

فَقَالَتْ: نَعَمْ، حَدَّثَنِي أُمُّ أَيْمَنَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ زَارَ مَنْزِلَ فَاطِمَةَ عليها السلام فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ فَعَمِلَتْ لَهُ حَرِيرَةً وَأَتَاهُ عَلِيٌّ عليه السلام بِطَبَقٍ فِيهِ تَمْرٌ، ثُمَّ قَالَتْ أُمُّ أَيْمَنَ: فَاتَيْتُهُمْ بِعُسٍّ فِيهِ لَبَنٌ وَزُبْدٌ، فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عليه السلام مِنْ تِلْكَ الْحَرِيرَةِ، وَشَرِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَشَرَبُوا مِنْ ذَلِكَ اللَّبَنِ، ثُمَّ أَكَلُوا مِنْ ذَلِكَ التَّمْرِ وَالزُّبْدِ ثُمَّ غَسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ وَعَلِيٌّ يَصُبُّ عَلَيْهِ الْمَاءَ»^١.

وكما يبدو فقد كانت جلسة عائلية تشاهد فيها حالة السرور، ولكن سرعان ما تتحول الى جلسة حزن واعتصار الألم لما سوف يُنقل فيها من صور الافتتان والمصائب التي سوف تنزل على أهل بيت النبوة عليه السلام. فتضيف الرواية:

«فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ غَسْلِ يَدِهِ مَسَحَ وَجْهَهُ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ نَظْرًا عَرَفْنَا بِهِ السُّرُورَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ رَمَقَ بِطَرْفِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ مَلِيًّا، ثُمَّ إِنَّهُ وَجَّهَ وَجْهَهُ نَحْوَ الْقُبْلَةِ وَبَسَطَ يَدَيْهِ وَدَعَا ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا وَهُوَ يَنْشِجُ،

١ - كامل الزيارات، ص ٢٦٢.

فَأَطَالَ النَّشُوجَ وَعَلَا نَحِيبُهُ وَجَرَتْ دُمُوعُهُ.

ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَأَطْرَقَ إِلَى الْأَرْضِ وَدُمُوعُهُ تَقْطُرُ كَأَنَّهَا صَوْبُ الْمَطَرِ، فَحَزِنَتْ فَاطِمَةُ وَعَلِيٌّ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عليهم السلام وَحَزِنْتُ مَعَهُمْ لِمَا رَأَيْنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهَبْنَاهُ أَنْ نَسْأَلَهُ، حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ قَالَ لَهُ عَلِيٌّ وَقَالَتْ لَهُ فَاطِمَةُ: مَا يُبْكِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أَبْكِي اللَّهَ عَيْنِيكَ فَقَدْ أَفْرَحَ قُلُوبُنَا مَا نَرَى مِنْ حَالِكَ؟

فَقَالَ: يَا أَخِي سُرِرْتُ بِكُمْ سُرُورًا مَا سُرِرْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْكُمْ وَأَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى نِعْمَتِهِ عَلَيَّ فِيكُمْ إِذْ هَبَطَ عَلَيَّ جَبْرَائِيلُ عليه السلام فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَطْلَعَ عَلَى مَا فِي نَفْسِكَ، وَعَرَفَ سُرُورَكَ بِأَخِيكَ وَابْنَتِكَ وَسِبْطَيْكَ، فَأَكْمَلَ لَكَ النِّعْمَةَ وَهَنَّاكَ الْعَطِيَّةَ بِأَنْ جَعَلَهُمْ وَذُرِّيَّاتَهُمْ وَمُحِبِّيَهُمْ وَشِيعَتَهُمْ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، يُحِبُّونَ كَمَا تُحِبُّ، وَيُعْطُونَ كَمَا تُعْطِي، حَتَّى تَرْضَى وَفَوْقَ الرِّضَا عَلَى بُلُوَى كَثِيرَةٍ تَتَنَاهَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَمَكَارِهِ تُصِيبُهُمْ بِأَيْدِي أَنْاسٍ يَنْتَحِلُونَ مِلَّتَكَ وَيَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ مِنْ أُمَّتِكَ، بَرَاءٌ مِنَ اللَّهِ وَمِنْكَ، خَبَطًا خَبَطًا وَقَتْلًا قَتْلًا، شَتَّى مَصَارِعُهُمْ، نَائِيَّةٌ قُبُورُهُمْ، خَيْرَةٌ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ وَلَكَ فِيهِمْ، فَاحْمَدِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى خَيْرَتِهِ، وَارْضَ بِقَضَائِهِ. فَحَدَّثْتُ اللَّهَ وَرَضِيتُ بِقَضَائِهِ بِمَا اخْتَارَهُ لَكُمْ»^١.

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

هكذا نصب الرسول ﷺ وأهل بيته  مآتماً قبل وقوع فاجعة كربلاء العظيمة، بحيث يحضر فيها صاحب الدور العظيم الحسين  وأمه وأبوه وأخوه في المآتم.

وهنا تأتي البشارة الكبرى لشيعه الحسين  ومحبيه الذين ساروا على نهجه  بأن يكون (الرضا) من الله تعالى يوم القيامة في قبالة تحمل العناء والعذاب والوصب في سبيله.

أجل، هذا المشهد البطولي لأهل بيت النبوة  في أرض كربلاء، يحكي لنا قوة وصدق الايمان، وعظمة الأداء والبذل والتضحية، ويبين عاقبة مسيرة هؤلاء الأفاضل الحسنة، وفي المقابل عاقبة أعدائهم طلاب الهوى والدنيا السيئة.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^١.

-ع-

الإعداد سبيل الإستقامة

مسألة الإعداد وإحراز المقدمات اللازمة لأي عمل تعتبر إحدى المواضيع المهمة التي تدرس في علم أصول الفقه، باعتبار أنّ المكلف لا يستطيع أداء الفرائض كما هو المطلوب منه دون إحراز مقدماتها والإعداد لها.

ولقد عاجلت الآيات القرآنية العديدة هذه المسألة لتمثل بدورها نوراً يستضيء العلماء به، من قبيل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾^١ إذ السعي والحركة من شأنه إيصال المكلف الى تحقيق ما يصبو إليه، دون الجمود والخنوع. وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾^٢ نظراً

١- النجم: ٣٩-٤٠.

٢- التوبة: ٤٦.

الى أن الإعداد أهم بدرجات من المواجهة ذاتها، لأنَّ ساعة المواجهة هي ساعة الصراع، وأيَّ عاقل ورشيد لا يدخل الصراع دون أن يهيء نفسه لتلك الساعة. وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^١. فإذا كان الهدف محدداً فلا بد من الإعداد له، لإحراز الكثير من الإنجازات، ولتجنب الكثير من أشكال العقبات أو الهزائم.

والفترة التي تستغرقها عملية الإعداد للقيام بالواجب، تُدعى بالانتظار، إذ الإنتظار لا يعني جلوس المرء في بيته متوقفاً أن يحقق الله له تطلعاته وآماله وأهدافه، إنما الانتظار يعني سعي الإنسان وتحركه باتجاه إعداد ما ينتظره وما يريد تحقيقه. وإنطلاقاً من هذه القناعة فإنَّ قول الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾^٢ يشير الى أنَّ المنتظر هو الساعي والمتحرك والمعد نفسه ليوم المواجهة ولحظة الانطلاق.

١- الأنفال: ٦٠.

٢- الأحزاب: ٢٣.

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

هذه الآية الكريمة نزلت بحق الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. فقد روي عنه عليه السلام، حوار طويل مع يهودي، قال فيه:

«وَلَقَدْ كُنْتُ عَاهَدْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولَهُ عليه السلام أَنَا، وَعَمِّي حَمْزَةُ، وَأَخِي جَعْفَرُ، وَابْنُ عَمِّي عُبَيْدَةُ، عَلَى أَمْرٍ وَفِينَا بِهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ، فَتَقَدَّمَنِي أَصْحَابِي وَتَخَلَّفْتُ بَعْدَهُمْ لِمَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِينَا: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾. مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ: حَمْزَةُ وَجَعْفَرُ وَعُبَيْدَةُ، وَأَنَا وَاللَّهُ الْمُنتَظِرُ - يَا آخَا الْيَهُودِ - وَمَا بَدَّلْتُ تَبْدِيلًا»^١.

وبهذا بقي الإمام عليّ ينتظر الشهادة على أحرّ من الجمر، دون أن يبدّل أو يخلف في انتظاره أو يتراجع عما يعتقد به، ولو بمقدار أنملة واحدة.

فهل كان الإمام عليّ عليه السلام ينتظر الشهادة وهو قابع في بيته؟! كلاّ وألف كلاّ، فقد كان الإمام أمير المؤمنين لا تفوته فائتة في إثبات ولّيه وحبّه وعشقه الذي لا يوصف لله ولرسوله وللمؤمنين الصادقين. فهو الأول في كل معركة، والأول في نصرّة المظلومين ودعم الفقراء وتوفير الرخاء والسعادة لأبناء دينه، حتّى تلك المعارك التي كان يقودها

١ - الخصال، ج ٢، ص ٣٧٦.

بنفسه ، كان ينتظر الشهادة في سوح الوغى ، حتى أنه روي عن أبي عبد الله عليه السلام : كان قنبر غلام علي يحب علياً عليه السلام حباً شديداً ، فإذا خرج علي صلوات الله عليه خرج على أثره بالسيف ، فرآه ذات ليلة فقال : « يَا قَنْبَرُ ، مَا لَكَ » ؟ فقال : جئت لأمشي خلفك يا أمير المؤمنين . قال : « وَيْحَكَ ، أَمِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ تَحْرُسُنِي أَوْ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ » ؟ فقال : لا ، بل من أهل الأرض . فقال : « إِنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ لَا يَسْتَطِيعُونَ لِي شَيْئاً إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَارْجِعْ » فَرَجَعَ^١ .

وهذا يعني فيما يعني أن أمير المؤمنين كان ينتظر الشهادة بشجاعته وبطولاته ومواقفه الرافضة قولاً وعملاً لكل الانحرافات . ونحن أيضاً ننتظر ظهور الإمام الحجة بن الحسن عجل الله فرجه ، ولكن كيف ينبغي أن يكون إنتظارنا؟

هل ننتظره من بيوتنا؟

أم ننتظره بالكلام المجرد؟

الفريضة الشرعية والعقلية تؤكد : أن الانتظار لا يعني سوى الإعداد والتحرك والانطلاق نحو تأدية الواجبات حتى آخر لحظة من لحظات عمرنا . فالانتظار مفهوم أساسي من مفاهيم مدرسة أهل البيت عليه السلام ، ومن اللازم أن نختزل أبعاده وحقائقه ، وأن نحوله الى قيمة

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

حياتية وسيرة جهادية في حاضر الأمة ومستقبلها.

وليس مفهوم الاستقامة ببعيد عن مفهوم الانتظار، فمن يريد أن يكون فوق السطح، لا يمكنه القفز إليه مرة واحدة. فالصعود المفاجئ يلحقه سقوط مفاجئ أيضاً، إنما عليه الصعود مرحلة مرحلة. والأمة التي تريد أن تستقيم على الحق وتنتصر له، وتريد أن تكون أمة مجاهدة لها وزنها وثقلها الإيجابي في التاريخ، لا بدّ لها من السعي لتحقيق تلك العوامل التي بدورها تحقق الاستقامة.

وبتعبير آخر: علينا أن نتساءل عن طبيعة الاستقامة؟ وكيف يمكن أن تستقيم الأمة؟ وما هي الثقافة التي لا بدّ للأمة من التسلّح بها حتى تستقيم على الطريق؟ وكيف يمكننا تحقيق وتكريس هذه الثقافة في أنفسنا وفي أمتنا؟

للإجابة على هذه التساؤلات: هناك ثلاث إجابات تمثلها ثلاث مفردات أساسية، فهي بمثابة المراحل التي ينبغي أن نخرج عبرها لنصل الى قمة الاستقامة.

الأولى: الأمل والنظرة التفاؤلية الى المستقبل، باعتبار أن الشاؤم واليأس والقنوط هي من جنود الشيطان، ولا يبتّ الشيطان ما فيه الخير لابن آدم، فهو الذي يوسوس في الصدور.

ومن هنا كان لزاماً على المسلمين تحديد موقفهم الاعتقادي والعملي من قضية الإحباط، مع تكريس إيمانهم بأنَّ طريق ذات الشوكة هو طريقهم، وبالتالي فإنَّ من الطبيعي للغاية أن تكون الصعاب والتضحيات والتحديات هي المعلم الأوضح في سيرتهم وكدهم. وهذه هي صفحات التاريخ بين أيدينا وأمام نواظرنا، ومن الممكن لنا التدقيق فيها وتحليلها بوعي، ولن ننتهي إلى نتيجة سوى أنَّ الأمل والتحدّي وتقديم التضحيات ونبذ اليأس والإحباط من شأنه النهوض بمستوى الأمة وتوجيه مسيرتها نحو الأفضل، تماماً كما هو واضح من خلال مطالعة السيرة الذاتية والاجتماعية لأهل البيت عليهم السلام وأولادهم الطاهرين الذين حملوا راية الاستقامة والعدل في كل مكان، بدءاً بالعراق والجزيرة العربية ومروراً ببلاد المشرق الإسلامي، وعوداً إلى بلاد المغرب الإسلامي.

ونحن رأينا ولا نزال نرى أنَّ الثورات والانتفاضات إنما تقدح شرارتها باسم الدين وباسم أبطاله العظام وفي مقدمتهم أهل البيت عليه السلام، ولعلَّ كل قطرة من دماء الشهداء الذين حافظوا على الدين أصبحت أساساً للمساجد وبيوت الله التي هي في الواقع الأعمدة المحافظة على الأرض أن تميد بأهلها، وقد جاء في حديثٍ عن الإمام الصادق عليه السلام:

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

«فَمَا مِنْ مَّسْجِدٍ بُنِيَ إِلَّا عَلَى قَبْرِ نَبِيٍّ أَوْ وَصِيِّ نَبِيٍّ قُتِلَ فَأَصَابَ تِلْكَ الْبُقْعَةَ رَشَةً مِنْ دَمِهِ فَأَحَبَّ اللَّهُ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا، فَأَدَّ فِيهَا الْفَرِيضَةَ وَالنَّوَافِلَ وَأَقْضَى فِيهَا مَا فَاتَكَ»^١. وهكذا تحولت دماء الشهداء إلى مسيرة إيمانية، من طبيعتها ان تعكس مصداقية التفاؤل والأمل بالله الكبير الذي وحده رَسَمَ مقدّرات خليفته والقضاء فيهم وعليهم.

وهذا الأمل يجسّد عمق الانتظار، وهذا هو معنى التسليم والشكر في العقيدة الإسلامية، الشكر الذي يركّز على الجوانب الإيجابية في الحياة ولا ينسى أو يتناسى السعي الواعي الى حلّ وتلافي السليبيّات.

الثانية: إنّ الاستقامة تُبنى على أساس الزهد في الدنيا، فمن المصاعب والمشاكل التي تهزّ الإنسان بكل كيانه ولا تترك له مجال الاستقامة على الطريق، هو إهتمامه بالبحث عن المراكز والمناصب والمغريات الأخرى في الدنيا. وهذا النموذج حينما يدخل حلبة الصراع ولا يحصل على ما كان يصبو إليه من الماديات سيصاب بمزيد من الإحباط، ويكون عرضة مباشرة لردود الأفعال التي يتخذها إنطلاقاً من هواه.

أما الزاهد بماديات الدنيا، كأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)،

١- الكافي، ج ٣، ص ٣٧٠.

حيث دخل الحروب على بيّنة من أمره ، دخل وهو يعرف ما عليه وما له ، فإنه يعرف أنّ عليه الاستقامة في المعركة بإخلاص ، وأنّ له عظيم الثواب من الله تبارك وتعالى .

إنّ هناك العشرات من الأحاديث والروايات الشريفة التي عكف علماؤنا الأعلام على تدوينها في كتبهم وموسوعاتهم ، والتي تفيد بأن الغرض من الجهاد هو ضمان مستقبل أفضل للأجيال اللاحقة ، من قبيل قول النبي ﷺ : «اغزُوا ثَوْرِيثُوا أَبْنَاءَكُمْ مَجْدًا»^١ . وقوله ﷺ : «هَاجِرُوا ثَوْرِيثُوا أَبْنَاءَكُمْ مَجْدًا»^٢ . وهذا يعني أنّ على المجاهد أن يتحمّل مسؤولياته بعيداً عن التفكير المصلحي ، وأن يخوض المعارك بمختلف أشكالها وظروفها بهدف ضمان العزة والعدالة للأجيال اللاحقة ، وأنّ البحث عن الدنيا يتطلب ميادين أخرى ، غير ميادين الجهاد وتحدي الطغاة .

وقد شرط الله سبحانه وتعالى الزهد والرغبة عن الدنيا على أئمة المسلمين ، كما جاء في دعاء الندبة المأثور : «بَعْدَ أَنْ شَرَطْتَ عَلَيْهِمُ الزُّهْدَ فِي زَخَافِ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ» . ولما علم الله أنهم سيكونون أوفياء لهذا الشرط أعطاهم الله ما أرادوا من نصر وعزة وكرامة : «فَشَرَطُوا لَكَ ذَلِكَ ،

١- وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٩، أبواب جهاد العدو، ح ١٥ .

٢- نزهة الناظر وتنبية الخاطر، ص ١٩ .

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

وَعَلِمْتَ مِنْهُمْ الْوَفَاءَ بِهِ، فَقَبِلْتَهُمْ وَقَرَّبْتَهُمْ، وَقَدَّمْتَ لَهُمُ الذِّكْرَ الْعَلِيَّ وَالنَّاءَ الْجَلِيَّ، وَأَهْبَطْتَ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَتَكَ، وَكَرَّمْتَهُمْ بِوَحْيِكَ، وَرَفَدْتَهُمْ بِعِلْمِكَ، وَجَعَلْتَهُمُ الذَّرَائِعَ إِلَيْكَ، وَالْوَسِيلَةَ إِلَى رِضْوَانِكَ.^١

الثالثة: ضرورة الانفتاح بين الطليعة (الخاصة) بعضها على بعض من جهة، وبين الخاصة والعامة من جهة أخرى. فإن من أعقد الأزمات والمشاكل التي تحطم روح الاستقامة في الأمة هي تناحر الطليعة فيما بين أقسامها وأشكالها. فالطليعة، يفترض أن تضم أناساً مؤمنين صالحين صادقين مجاهدين، غير أن الشيطان يزرع بذور الفتنة والخلاف والنفاق. ولا يمكن بأي حال من الأحوال تصوّر مجاهدين صادقين، هدفهما مرضاة الله تبارك وتعالى وهما يتناحran أو يتظاهرا أحدهما أمام الآخر بما لا يبطن.

وليكن في حسابان الجميع أنّ الانسان من طبيعته النفسية أن يصاب في بعض الأحيان بالإرهاق النفسي والذهني والعاطفي، مما قد ينعكس على بعض تصرفاته ما يفهم منه العناد أو الجدل غير الشرعي. ولهذا فإنّ الدعوة تشمل الجميع لكي يحملوا أنفسهم على الصبر والتواصي به، حتى تكون ظاهرة حسن الظنّ هي الظاهرة النافذة المفعول في

١ - المزار الكبير، ص ٥٧٤.

الصف الإسلامي.

وثمة أزمة أخرى ، وهي ابتعاد الطليعة عن الجماهير ، وهذا لعمري ما يسهل للعدو في أن يوجه ضرباته المتتالية والقاتلة للجميع . وعليه فإن من المهم في هذا الإطار أن تسعى الطليعة الى تكريس علاقتها بالمجتمع ، فلا حواجز نفسية من قبيل التعالي والتكبر بداعي الفهم الأكثر أو الإحساس الأشد ، ولا ضرورة أبداً في أن يتكلم العالم المسلم بلغة علمية غريبة عن فهم واستيعاب الآخرين ، وليكن نموذج علاقة أهل البيت عليهم السلام بالناس هو النموذج الأول والأساس في تعامل الطليعة مع الجماهير في واقعنا الحاضر ، وليس من رسالة العلماء والمفكرين صياغة ما لديهم من رؤى وبصائر بقوالب غريبة أو جامدة وجافة ، بل العكس هو المطلوب ، إذ مهمتهم التي فرضها الله عليهم هي التبيان ، وهذا هو القرآن الكريم بين أيدينا ، قد وصفه الله بأنه ﴿قُرْآنٌ مُبِينٌ﴾^١ أي واضح وموضح في الوقت ذاته ، وهذا هو النبي الأكرم عليه السلام قد قال : « إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ »^٢.

فالمطلوب أن تتفاعل الطليعة مع الجماهير ، وألا تتعالى عليها بأي شكل من الأشكال ، إذ أن أية حركة استطاعت أن تكون حركة

١- يس: ٦٩.

٢- الكافي، ج ١، ص ٢٣.

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

جماهيرية تنطق باسم الناس وتعاني همومهم وتعمل على الأخذ بيدهم نحو إرادة الله ونحو النصر، فإن تلك الحركة حركة لا تموت أبداً، لأن الفرد الطليعي الواحد إذا كان معرضاً للإرهاق أو التراجع أو الموت، فإن الأمة إذا نهضت بوعي وتفاعلت مع تطلعات دينها وأوامر ونواهي ربّها، فهي أمة لا ترهق ولا تتراجع ولا تموت أبداً.

إذن، فهذه مفردات ثلاث إذا وجدت، وُجِدَت الإستقامة، وتوفر في الانتظار الصحيح شروطه، وهنالك يأتي أمر الله ونصره. وليكن في الأذهان أن من المستحيل أن تنال حركة إسلامية ما النصر دون إرادة وفعل غيبي إلهي، ولكن الله يريد من المؤمنين به الإعداد، لأنه يريد أن يحص ما في القلوب، ويريد للإنسان المؤمن أن يثبت جدارته ليكون أفضل من سائر المخلوقات.

-٥-

الإستقامة ثمن الأهداف العظيمة

عندما تطمح أمة للوصول الى هدف عظيم ، فلا بد من الاستعداد لتقديم عمل يساوي ويعادل هذا الهدف العظيم. وعندما تقرر أمة العيش مستقلة ومتقدمة ، وتسعى الى قهر الطبيعة ، وتستهدف التغلب على نقاط ضعفها من فقرٍ وجهلٍ ومرضٍ وعجزٍ ، وتريد التغلب على المشاكل السياسية والاجتماعية ، فلا بد لها من أن تدفع ثمن ذلك ، وهذا الثمن عظيم. فالذين يطمحون طموحات سامية ثم لا يدفعون بإزائها الثمن المناسب ، فانما هم يعيشون الأمانى التي لا تغني عن العمل شيئاً.

شرط الوصول لمرضاة الله

وفي الآيات التالية من سورة (فصلت) يؤكد الله عز وجل على

ضرورة توفر الاستقامة من أجل الوصول الى مرضاته واقامة حكمه :
﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾^١.

والآيات الكريمة هذه تقرر أن في طريقنا ومسيرتنا عراقيل وصعوبات ، لا بد من أن نستعد لإزالتها والتغلب عليها. وهناك مشاكل لا بد من التحصن ضدها ، ومصائب من واجبتنا الصبر عليها ، وهزائم وانتكاسات لا بد من استيعابها وتحويلها الى انتصارات.

طريقنا مليء بالتضحيات

إن في الطريق الذي نسلكه تضحيات ومآسٍ ، ودموعاً ودماءً . ومن أجل ذلك لا بد أن نستقيم . فالله تبارك وتعالى لم يقل في آية من آيات القرآن الكريم إن طريق الجنة سالك ومعبد ومفروش بالزهور

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

والرياحين والورود، بل إنه تعالى أكد المرة بعد الأخرى أن طريقها محفوف بالمخاطر، والعقبات الكأداء التي لا مناص من اقتحامها. وهكذا فإن الذي يقول: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ لا بد أن تعترضه عقبات، وتتحدها مشاكل. فقوله: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ يعني أنه يكفر بما سواه، أي يكفر بالطاغوت والمجتمع الفاسد والانحرافات الفكرية، ويرفض الخضوع للأهواء والشهوات. فشرط العبودية الصادقة لله أن تعيش حراً مستقلاً، وأن لا تخضع لشهواتك وشهوات الآخرين، ولا تستسلم لقانون غير قانون الله عز وجل.

وقد تسأل: لماذا استخدم السياق القرآني كلمة (ثم) ولم يأت بحرف الفاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾. وحسب ما يبدو لي، إنّ «ثُمَّ» تدل على أن المشاكل ستستمر، فلو كان الله تعالى قد قال: إن الذين قالوا ربنا الله فاستقاموا. فربما دلّ ذلك على أن عبارة ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ تحتاج الى استقامة واحدة، أي الى لحظات أو ساعات أو أيام من الاستقامة. ولكن السياق القرآني الكريم استخدم «ثُمَّ»، وكأن الزمن سيستمر، والاستقامة تتم بشكل تدريجي.

التأييد الإلهي

ثم يقول تبارك وتعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ذلك لأنّ العمل

الذي يقوم به المؤمنون تنوء به الجبال ، وتثقل به الأرض ، فهو عمل عظيم . ولذلك فانهم بحاجة الى الاستقامة والتأييد الغيبي من خلال تنزيل الملائكة عليهم . فالملائكة تهبط عليهم المرة بعد الأخرى ، لأنَّ العمل عظيم بعظمة الهدف المراد تحقيقه ، ولأنَّ الله عز وجل يعلم أن الانسان خُلِقَ من ضعف ، فلولا التأييد الغيبي والاتصال بالحق لما استطاع الإنسان المؤمن أن يحقق الانتصار ، كما يصرح بذلك تعالى قائلاً: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾^١.

وعلى سبيل المثال فلو لم يُرِ الله النبي يوسف عليه السلام برهانه ، لهم بها مثلما همّت به . ولو لم يُعْطِ الله تبارك وتعالى ابراهيم عليه السلام رشده ، وموسى عليه السلام تأييده ، وآدم وسليمان عليهما السلام التوبة .. لما كانوا قادرين على مقاومة ذلك الزخم الهائل من الضغوط ، وتلك الأمواج الهادرة من المشاكل . ولكن الله سبحانه وتعالى تفضل عليهم بالتأييد ، وفي هذا التأييد بشارة لكل أولئك الذين يريدون الجنة . فبالرغم من أنَّ الاستقامة شاقة للغاية إلى درجة تشقق الجبال منها ، ولكن تأييد الله يمنحهم الاستمرارية على الثبات والاستقامة .

فعلى الإنسان المؤمن أن لا يهن ولا يحزن ، فالله جل وعلا يؤيده بنصره ، وذلك بأن يثبت قلبه . فالملائكة لم تنزل في معركة بدر إلا

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

لثببت قلوب المؤمنين، وبث السكينة في نفوسهم، وإلى ذلك تشير الآية القرآنية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

وملاحظ أن الآية تقول: ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ ولا تستخدم لفظة "تنزل" لأن النزول يحدث مرة واحدة، أما التنزل فيحدث المرة بعد الأخرى، أي إنه يفيد الدوام والاستمرارية. فكلما واجهت المؤمنين مشكلة، نزلت عليهم ملائكة الرحمة والسكينة والاطمئنان والثبوت القلبي.

البشارة بالجنة

والملائكة توحى لهؤلاء المؤمنين بعدم الخوف والحزن، أي بعدم الخوف مما يأتي، وعدم الحزن على ما مضى، ثم تبشّرهم بدخول الجنة: ﴿وَأَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

فإذا كانت السلعة الجنة، فالثمن قليل مهما كان باهظاً، لأن الله سبحانه وتعالى هو ولي المؤمنين في الدنيا والآخرة، كما وعد بذلك رب العزة إذ يقول: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ * نَزْلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ.

وعندما يدخل الإنسان المؤمن السجن، ويتعرض للتحقيق

والتعذيب على أيدي الجلادين ، فإنه لا يدخل غرفة التحقيق وحده ، وإنما تدخل معه أيضاً الملائكة الحافّة به ، الحائمة حوله ، ولذلك تراه يستقيم في وجه جلاده .

وعندما يكون الضيف هو العبد المؤمن المخلص الذي أعطى كل حياته في سبيل المضيف الذي هو رب العالمين الغفور الرحيم ، فكيف تكون إستضافة الله عز وجل لهذا العبد؟ هذه الاستضافة يصفها القرآن في قوله : ﴿نُزِّلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ .

بنود الاستقامة

ثم يذكر لنا السياق الكريم بنود الاستقامة في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ .
فبنود الاستقامة هي : الدعوة الى الله ، والعمل الصالح ، والاعلان عن الموقف الصادق الذي هو موقف التسليم لرب العالمين .

والاستقامة هي أيضاً إستقامة السلوك ، بأن نتعاون مع إخواننا ، وأن لا يصلهم منا سوء حتى وإن كان من ألسنتنا : ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ .

-1-

الإستقامة ضمان النجاح

ثمة آيات بينات من سورة هود جمعت في تضاعيفها خلاصة تجارب الأنبياء عليه السلام، وأوجزت الدروس التي من الممكن إستلهاها من حياتهم، وقد بدأ الحديث عن هذه التحارب والدروس بقوله عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ^١﴾.

عصمة من الخلاف

فالقرآن هو أفضل ضمان لعدم التفرقة عندما نتمسك به، ونعتصم بحبل الله الذي فيه، أما إذا اتخذناه مادة للاختلاف، وتبريراً للأهواء، فإن المعادلة ستصبح في ميزان آخر.

١- فصلت: ٤٥.

وكتاب الله سبحانه يمثّل دائماً دليل الوحدة ورمزها، وعصمة من الخلاف والضلالة، ولا بد أن نرجع إليه ما دام بين أيدينا، ونختلف إليه لا أن نختلف فيه. فهو إطار لكل القيم الإلهية الصائبة التي تعالج مشاكل الإنسان، ومن أبرز المشاكل التي يُبتلى بها هذا الإنسان إختلافه، وإختلاف مذاهبه وأهوائه ومصالحه، ولذلك فإنّ القرآن الكريم هو القاضي الذي يحسم الخلافات الناشئة بين الناس إذا احتكموا الى قيمه.

ومن الملاحظ أنّ الانسان قد يجعل نفسه محوراً لمواقفه وأفكاره وتقييمه للآخرين، وقد يجعل الحق المحور لما يتخذه من مواقف، وما تصدر منه من أحكام، فيعود الى القرآن كلّما احتار مستفسراً عمّا يجب أن يفعله. وحينئذ يستطيع أن يحصل على الفكر السليم، والخطّة الواضحة، والمواقف الصحيحة. أمّا إذا جعل نفسه هي المحور، وقيّم الأحداث وفق ما تملّيه عليه نفسه، واتخذ مواقفه بناءً على أهوائه، فإنّ أفكاره ستكون مهزوزة قلقة، فتارة يحكم بصحة وسلامة حدث ما، وتارة يخطئه. فمواقفه من الأمور تكون إيجابية مرة، وأخرى سلبية، لا لطبيعة التغير الذي يحدث في الأمر، بل لطبيعة التغير فيه.

وهذه المواقف هي السبب الرئيسي للاختلافات، أما المواقف التي

تصدر من إتباع الحق فهي المواقف الصائبة. فهناك فرق كبير بين أن يقول الإنسان: من معي؟ وبين أن يقول: مَنْ مع الحق؟ لأنّه في المرّة الأولى جعل من نفسه محوراً، وجعل الآخرين يلتفون حوله، أمّا في المرة الثانية فقد جعل الحق محوره، وبالتالي فإنّ رؤيته ستكون سليمة.

الإنسان مسؤول عن أعماله

ولا بدّ أن يعرف الإنسان أنه مسؤول عما يقوم به من أعمال، ومحاسب عليها إنّ خيراً فخير، وإنّ شراً فشر، ولذلك نرى القرآن يؤكد باستمرار على فكرة المسؤولية، حتى تبدو وكأنها خلاصة لتوجيهات آيات القرآن. والتدبّر في هذه الآيات يفرز توجيهاً عاماً يهدف الى ترسيخ هذه الفكرة في النفس البشرية.

ولكن لماذا كلّ هذا الاصرار على تأكيد فكرة المسؤولية؟

الجواب: إنّ الإنسان يهرب دائماً من تحمل المسؤولية، ولا يريد أن يوحي الى نفسه أنه مسؤول، ويرى من الصعب عليه أن يحمل نفسه هذه الأمانة، فيبعدها عنه حتى أنه ينسب الأخطاء والسلبيات الى ما حوله تخلصاً من المسؤولية. ولكن القرآن الكريم يقول: ﴿وَإِنَّ كُلَّ لَمَّا لِيُؤْفِقَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^١. ونحن نلاحظ أن

في هذه الآية تأكيدات عديدة تركّز الكلام، لكي يكرّس القرآن روح المسؤولية في أنفسنا.

إستقم ولا تطغ

ثم يقول تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾^١، وهذه الآية تطالب بالاستقامة البعيدة عن التكبر والتعالي والطغيان، وعن المنّة على الله عز وجل، بأننا قد استقمنا. فالاستقامة يجب أن تكون مع التواضع، وهي ليست بالأمر الهين اليسير، خصوصاً عندما يشتدّ البلاء، وتزداد المصائب، وتطول المدّة.. حينذاك يجدر بالانسان أن لا يتراجع أو يتخاذل أو يتكاسل، بل ينبغي أن يصبر ويستقيم، لأن الاستقامة هي - بحد ذاتها - عامل من عوامل النجاح.

وللأسف فإننا نرى أن نشاطات البعض موسمية تتحكم فيها الأهواء، والأمزجة، فهم لا يعملون إلا عندما تهوى أنفسهم العمل، ويتوقفون عندما لا يستطيعون التحرك.. ولا يمكن لهؤلاء أن ينجحوا في حياتهم، لأنّ الحياة ذات أجزاء متّصلة مع بعضها البعض كالصلاة التي لا يمكن أن تكون صحيحة ومقبولة إذا انعدم جزء منها.

ولأجل أن يستقيم المؤمنون على الطريق السوي والمنهج المرضي،

يقول ربنا عز وجل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^١. وهكذا يجب على الإنسان المؤمن أن يجعل هذه الآية نصب عينيه وخصوصاً في ظروف المصاعب والمحن، وإذا أقبلت عليه الفتن كقطع الليل المظلم، وتوالت عليه الضغوط من كل مكان، وشعر بالضعف، فعليه في هذه الحالة أن لا يستسلم لهذا الضغط أو يركن الى اليمين أو الشمال، بل عليه أن يصمد ويركن الى الله سبحانه وتعالى. فالضغوط الشديدة، والمصاعب الأليمة تجعل الإنسان بين طريقين، بين أن يركن الى الله جل جلاله، والى قوّته وحصنه الحصين، وبين أن يركن الى الذين ظلموا، وحينئذ سوف لا ينصره الله، ويكله إليهم.

الصلاة زاد روحي

ومن طبيعة الإنسان أنه يغفل ويصيبه التعب، فهو بحاجة الى زاد روحي يجده في الصلاة، فعليه - اذن - أن يكثر من إقامتها، ويحبّبها الى نفسه كما يقول عز من قائل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النُّهَارِ وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾^٢.

فعندما يكون الإنسان في حرج، سواء فيما يتعلق بالحياة الدنيا أم

١- هود: ١١٣.

٢- هود: ١١٤.

الآخرة، فإن الصلاة تكون عامل تفريج لهمه وغمه، ولذلك فإن عليه أن يقوّي علاقته بالصلاة، ولا يجعلها مجرد علاقة ضعيفة. فمن المستحيل على الشيطان أن يخدع الإنسان المرتبط بالصلاة برابطة قوية متينة، لأنه يلجأ إليها كلما حاول الشيطان إغواءه، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^١.

وأداء الصلاة والمواظبة عليها ليست أماناً للمؤمن من عذاب الآخرة، ومؤنسة له في ظلمة القبر، ومنقذة له من هول المطلاع فحسب، بل إن المؤمنين يلجؤون إليها كلما أشكلت عليهم مسألة شرعية فتتفرج أساريرهم وجميع قضاياهم المعقدة. فعلى الإنسان المؤمن أن يرتبط ارتباطاً قوياً بالصلاة، وأن يواظب على أدائها في أوقاتها. فالصلاة تمثل حالة روحية تُشعر الإنسان بقيمة الارتباط مع الخالق، وتسهّل عليه كثيراً من المشاكل النفسية والروحية.

عدم استعجال النتائج

والإنسان ينتظر نتيجة ما يعمل به بعد إنتهاء العمل مباشرة، ولكن القرآن يأمره بالصبر: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^٢

١- البقرة: ٤٥.

٢- هود: ١١٥.

الفصل الثالث: حصن الإبتلاء

موضحاً له أن ثمار العمل بحاجة الى وقت ، وإنّ عليه أن يستغلّ هذا الوقت في أداء الحسنات ويبادر الى عمل الصالحات ليرى نتيجة عمله في المستقبل دون تعجّل للأمور.

-٧-

الجنة ثمرة الإستقامة

الجنة غاية كل مؤمن، يدخلها بقلب طاهرٍ نقي، خالٍ من كل شائبة. يقول ربنا عز وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾^١.

بلى، الجنة لا يمكن أن يدخلها الإنسان الحسود، الحقود، الضعيف الارادة، بل يدخلها من أُوتي الارادة القوية والشجاعة والإقدام لتحدي عقبات الطريق، ومشاكل الحياة، كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^٢.

والقرآن الكريم يعطي للانسان مقياساً واقعياً لتمييز أصحاب الجنة

١- الحجر: ٤٧.

٢- الأحقاف: ١٣-١٤.

من أصحاب النار، فهو يصف أصحاب الجنة بأنهم مستقيمون على إيمانهم رغم قساوة الظروف، وضغط الدنيا، ومصاعب الإستقامة. علماً بأنه ليس كل إنسان لديه القدرة على الإستقامة، فقد يكون والدك هو الذي يخالفك، كما خالف النبي إبراهيم خليل الله أبوه، وقد يكون عمك هو الذي يعارضك ويقف في وجهك، كما فعل ذلك أبو لهب بالنسبة الى النبي ﷺ، وقد يكون هذا العدو متمثلاً في نظام الحكم المتسلط عليك، والذي قد يمارس ضدك الضغوط المختلفة.. فإذا استقمت في مواجهة كل تلك الضغوط سيكون بإمكانك دخول الجنة، كما يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾* أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^١.

أما إذا بقيت ولو ذرة من سلبات الدنيا ورواسبها في نفس الانسان، فانه سوف لن يدخل الجنة إلا بعد ان تسقط عنه تلك الذرة.

وقد جاء في الدعاء المأثور: «بِكَ أَسْتَجِيرُ يَا ذَا الْعَفْوِ وَالرَّضْوَانِ مِنَ الظُّلُمِ وَالْعُدْوَانِ، وَمِنْ غَيْرِ الزَّمَانِ، وَتَوَاتُرِ الْأَحْزَانِ، وَطَوَارِقِ الْحَدَثَانِ، وَمِنْ انْقِضَاءِ الْمُدَّةِ قَبْلَ التَّأَهُبِ وَالْعُدَّةِ»^٢. فالخطر يكمن في مفاجأة الموت للانسان قبل أن

١- الأحقاف: ١٣-١٤.

٢- بحار الأنوار، ج ٨٧، ص ١٦٤.

يستعد ويتأهب له.

لكي نكون من أصحاب الجنة

والسؤال المهم المطروح في هذا المجال هو: كيف يتسنى لنا الحصول على نفسية أصحاب الجنة مع ما نواجه من ضغوط؟ فغواية الشيطان، وأهواء النفس، وإغراءات الدنيا، بالإضافة الى ضعف الانسان، كل ذلك يمثل عقبات تقف في طريق الانسان، وتمنعه من أن يكتسب تلك القوة النفسية. فكيف السبيل الى ذلك؟

إنَّ على الانسان أن لا يكتفي بتغيير النواحي الظاهرية من حياته ولا شكله الخارجي، فمثل هذا التغيير - وان كان مطلوباً - ليس هدفاً، بل هو جسر الى التغيير الأساسي، وهو تغيير النفس.

وللأسف فإنَّ البعض يتصور أنه قادر على تحدي الضغوط عندما تواجهه، ولكن لا يستطيع الانسان أن يضمن تحقق مثل هذا التصور والإطمئنان إليه من دون إمتحان. فعند الإمتحان يعرف الانسان مدى قدرته على التحمل. فكثيراً ما يكون الإرهاب أو الإغراء سبباً للانحراف، ذلك لأنَّ النفس لم تتلق التربية الصحيحة.

وعلى سبيل المثال فإنَّ الانتظار الطويل هو إمتحان للانسان، فقد يتصور أحداً أنَّ التغيير من الممكن أن يتحقق خلال فترة قصيرة،

ولكن الانتظار يطول ، فيتعب وينهار ، ويوسوس إليه الشيطان قائلاً :
متى نصر الله ؟ حتى يصل أخيراً إلى مرحلة اليأس .

وعلى هذا ، فإن القضية الأساسية ليست هي تغيير المظاهر ، فكل
إنسان باستطاعته أن يغير المظاهر ، ويعود نفسه على الالتزام به . إلا أن
تغيير الداخل يبقى هو الأساس في رسم شخصية الإنسان .

كيف نضمن الاستقامة ؟

ولكن كيف نضمن الاستقامة ؟

إن الله تعالى رحيم بالإنسان ، ويعلم ضعفه وجهله وظلمه لنفسه ،
وقد أخبر سبحانه عن ذلك في الذكر الحكيم ، إذ قال : ﴿ إِنَّهُوَ كَانَ
ظُلُومًا جَهُولًا ﴾^١ ، وقال : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾^٢ و ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾^٣ .

إن الغرور والجهل والظلم الذاتي صفات شائعة في الإنسان ، ولأنَّ
الله رحيم بنا فقد أراد لنا أن نبلي القمة عبر خطوات ومعارج ، ولم
يأمرنا أن نقفز الى هذا القمة بشكل مباشر . فهو يعلم أنَّ الإنسان لا
يستطيع مقاومة هذا الضغط العظيم ، ولذلك فانه لا يُدخل الإنسان في

١ - الأحزاب : ٧٢ .

٢ - النساء : ٢٨ .

٣ - الكهف : ٥٤ .

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

هذا الامتحان العسير قبل أن يكون هناك إمتحان من نوع آخر لَتُعَرَفَ - بالتالي - درجة ايمانه وتقواه. فهو عز وجل لا يمرّ الانسان اعتباراً منذ البداية بإمتحان كإمتحان المؤمنين من أصحاب الأخدود، الذين واجهوا ملكاً في غاية الظلم والطغيان، وخيّرهم بين أن يكفروا بالله أو يدخلوا في أخدود النار. فهو لم يكن يريد أن يقتلهم بيده، بل أراد منهم أن يقذفوا بأنفسهم في النار. فإلله سبحانه وتعالى لا يواجه الانسان بشكل مباشر، ودون مقدمات بإمتحان كهذا.

ومع ذلك فإنّ هذه الإمتحانات وأمثالها هي أمام الانسان، وليست بعيدة عنه. فإمتحان الإغراء الشديد كالسلطة والملك والذي خدع رجالاً في التاريخ، وإمتحان الإرهاب الشديد الذي تعرض له أصحاب الأخدود وأمثالهم، ليسا بعيدَيْن عن الانسان. ولكن الله جل شأنه لا يدخلنا في هذا الإمتحان العسير، إلّا بعد أن يمرّنا بمجموعة من الإمتحانات اليسيرة.

وعلى سبيل المثال فان الصلاة هي إمتحان، وكذلك الحسد، وتحمل أخطاء الآخرين. يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ^١ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا^٢﴾.

وهكذا الحال بالنسبة إلى الإهانة التي تلحق بالانسان، والتسليم

١- الفرقان: ٢٠.

الذي يجب عليه لقيادته ولو في أمور بسيطة.. فهذه كلها إمتحانات متدرجة متصاعدة حتى يحل يوم الإمتحان العسير. فان كنا نريد حقاً النجاح النهائي ، فلا بد من أن نفكر بالنجاح منذ البدء.

وللأسف فإن البعض يريد الإمتحانات السهلة ، ولكن النتيجة الفاشلة ستظهر في الامتحان النهائي ، وهذه هي المشكلة الحقيقية التي يواجهها الانسان. أمّا المؤمنون فانهم يحبون أشق الأعمال على أنفسهم ، لأن كل عمل من هذه الأعمال يستتبع تغييراً في الجوهر الداخلي للنفس. فكل إمتحان يغيّر جزءاً من النفس ، وفي النهاية يصبح التغيير كلياً. فعلى الانسان أن لا يكتفي بتغيير الجوانب الخارجية ، بل عليه أن يغيّر الجوانب الداخلية أيضاً ، وأن يفتش عن الأسلوب الأفضل لتغيير نفسه.

إن النفس لا تتغير من خلال أمور ثانوية بسيطة ، وهي تشبه الى حد كبير الفولاذ الذي إذا أردت تغييره ، فلا بد من أن تجعله في بوتقة شديدة الحرارة ، وتعرضه للطرقّات الشديدة ، لكي يتغير بشكل تدريجي .

وإذا ما وجدنا قلوبنا غير قابلة للتغيير ، فلنعلم أنها قاسية ، وقساوة القلب لا تدع الإيمان ينفذ الى أعماق الإنسان ، بل يبقى طافياً على السطح. وبهذا الايمان السطحي لا يمكننا أن نقاوم الشيطان ، والإغراء ،

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

والإرهاب. ولذلك فإن على الانسان ان يفكر في كيفية تعميق الايمان في قلبه ، وسيهتدي حتماً إلى ان الطريقة الوحيدة الى ذلك هي التعرض للمشاكل الصعبة ، والإمتحانات العسيرة ، والخروج منها بسلام.

ولا يغيب عنا أنّ أماننا درب طويل ، ومسؤوليات جسيمة ، وتطلعات سامية ، وأهداف كبيرة ، ونحن نؤمن بأن الله عز وجل أنعم علينا بنعمة الإسلام العظيمة. فالمطلوب منا - إذن - أن نجعل تقوية إيماننا ، وتعميق وتكريس المفاهيم الإسلامية في عمق واقعنا من أولوياتنا في الحياة. وبهذا الأسلوب وحده سوف يمن الله تبارك وتعالى علينا بالغلبة ، ونضمن من خلال التوكل عليه إستقامتنا. وإذا ما ضمناً إستقامتنا ، فاننا سنكون بإذن الله عز وجل أصحاب الجنة التي وُعد بها المتقون.

-٨-

الجنة ميراث الإستقامة

أن تصل القمة فذلك أمر صعب، ولكن أن تبقى فوقها فذلك أمر أصعب، وأن تكون إنساناً نشيطاً حيث تتجاوز الكسل والضجر وتتغلب على الوسوس الشيطانية فذلك أمر عظيم، ولكن الأمر الأعظم منه هو الإخلاص في هذا النشاط والعمل.

ومن هنا، يحدثنا ربنا سبحانه وتعالى في سورة هود المباركة عن الاستقامة باعتبارها الموضوع الأهم في حياة الإنسان المؤمن، وباعتبارها تمثل الذروة في وصول المرء الى السعادة الأبدية. كما يضرب الله لنا الأمثال في ذلك، وأهمها الحديث عن الصعاب الكبيرة التي تعرّض لها الرسل والأنبياء أثناء تبليغهم رسالة السماء الى أممهم. ففي هذه السورة المباركة حديث مفصّل عن شيخ المرسلين نوح عليه السلام

الذي لبث في قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً يدعوهم الى دين الله القويم ، حيث عاصر أجيالاً تبعها أجيال ، وكلها كفرت به وبرسالته ، وتعرّض خلالها هذا النبي العظيم إلى ألوان الأذى والشماتة ، ولكنه صبر واستقام ، بل لم يزد أذى المشركين له ولمن تبعه إلا صموداً وإصراراً على تبليغ ما أمر به .

الاستقامة ثمن الجنة

يقول تبارك اسمه في خطابه لنبي الإسلام ﷺ : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ ﴾^١ ثم يضيف : ﴿ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾ ليُعلم أنه ليس كل الناس قادرين على الاستقامة ، بل فيهم الكثير من يسقط .

إن الاستقامة أمر في غاية الصعوبة ، لأنها بحاجة الى أرضية مسبقة ومخزون تربوي وروحي هائل . فالإنسان في طفولته بحاجة الى الاستقامة في مواجهة اللعب ، وحينما يكبر ويكون مرهقاً تكون إستقامته ضد الشهوات والجنس وتوافه الأمور ، وحينما يكون رجلاً لا بد له من الاستقامة في الكسب حيث يواجه الربا والغش في التجارة ، ويكبر قليلاً فتكون إستقامته على ألا تتناوشه الخطوط السياسية أو الفكرية المنحرفة ، وإذا أصبح في سن الخامسة والثلاثين مثلاً واستقرت حالته

١- هود: ١١٢ .

الفصل الثالث: حصن الابتلاء

المعاشية لا بد له من الاستقامة لئلا يلهيه التكاثر بالأموال والأولاد. وهذه الاستقامة مطلوبة منه حتى آخر لحظة من لحظات حياته، حيث يكون وجوده ساحة للصراع بين الشيطان والأجل. وقد رأينا أو سمعنا أن هناك من يتقبل التلقظ بالشهادتين وهو في حالة الإحتضار، وهناك من يتنكر للشهادتين ليستبدل بها أشعار الغزل والهراء وهو يسلم روحه لملك الموت!!

إنَّ القسم الأكبر من الناس يرون بأن الجنة ليست في مستوى التضحية، ويتخيلون بأن الجنة لو جاءت بصورة عفوية فيها، وإلا فلا... ويغفلون أو يتغافلون عن أن لدخول جنان الخلد ثمن، وهو الاستقامة والصبر على فتن الدنيا وعلى مكارهها ومصاعبها ومصائبها. وها هو الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول مؤكداً في إحدى خطبه: «هَيْهَاتَ! لَا يُخَدَعُ اللَّهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِمَرْضَاتِهِ»^١. ويقول عليه السلام في خطبة «الوسيلة»: «وَمَا شَرُّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ، وَمَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ»^٢.

وهناك آيات كثيرة تشير الى هذا المعنى، من قبيل قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^٣. فمن دخل الجنة لن

١- نهج البلاغة، خطبة ١٢٩.

٢- الكافي، ج ٨، ص ٢٤.

٣- يونس: ٦٢.

يخشى النار ولن يخاف الإهانة أو الذل ، وهو لا يحزن على ما دفعه في سبيل الله في الدنيا .

وكذلك قوله سبحانه وتعالى على لسان مؤمن آل يس الذي أنذر قومه فعذبوه أشد ما يكون العذاب ، ثم ذبحوه من الوريد الى الوريد ، ثم حرقوا جسده ونشروا رماده في البحر لكي لا يبقى له أثر ولا قبر ، ولكنه حينما دخل الجنة رأى ثمن الصبر والاستقامة والإيمان : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلِيَّتْ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ^١ .

وأيضاً قوله عز من قائل : ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾^٢ . فالجنة تفوق كل شيء وبصورة مطلقة ، لأن فيها رضوان الله ، وفيها الخلود ، وفيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولأن الطرف الآخر هو النار ، النار التي تترجم ارتكاب المعاصي والموبقات ، كما تترجم غضب خالقها .

إن ما نستفيدة من الآية المباركة القائلة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَلُّوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ

١- يس: ٢٦-٢٧ .

٢- الحشر: ٢٠ .

الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ^١. أَنَّ الذي يستقيم لفترة من الوقت مخلصاً عمله لوجه الله تعالى ، سيأخذ الله بيده ولن يتركه ليسقط وينهار ، بل سينزل عليه الملائكة لترفده بالسكينة والاطمئنان ، وتفتح أمام عينيه الأفق الواسع نحو السعادة وقطف ثمار الاستقامة والإخلاص .

إذن ، فالاستقامة قد لا تكون إلى الأبد ، فإنك قد تستقيم ولكنك تصل الى درجة حيث تنزل الملائكة عليك . وإن كثيراً من إخواننا الذين كانوا في سجون الطواغيت ووصلوا الى حافة الإنهيار تنزلت عليهم الملائكة بمختلف الأشكال ، فقسم منهم كان يرى في يقظته أو منامه ولياً من أولياء الله الصالحين يبشّره أو يطمئنه بأنه على مقربة من الجنة ، فيعود إليه إصراره على المقاومة والصمود .

الاستقامة واقع لا خيال

إِنَّ الضعف الكبير الذي قد يصيب هذا الإنسان أو ذاك هو أنه عندما يريد تحقيق فعل شيء تراه يحلم ويتمنى ، فيغفل عن التخطيط ومواجهة الواقع بشكل منطقي ، وإن كثيراً من الذين سقطوا ويسقطون في حبال الشيطان إنما بسبب أنهم : ﴿أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^٢ . فهم يحلمون ويتمنون ، ولا يغيرون

١- فصلت: ٣٠ .

٢- البقرة: ٧٨ .

واقعهم للوصول الى ما يهدفون.

فإذا أردت أن تبني بيتاً - مثلاً - فإنه لا يكفيك أن تحلم بالاقتراض من هذا أو ذاك، فإنك إذا واجهت الواقع سوف تجد أنك لا تملك شيئاً لبناء هذا البيت. وهكذا هي الجنة، لا يمكن الحصول عليها بالتمني والتظني، بل يسمح بالدخول فيها عبر العمل والتخطيط والاستقامة. يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ﴾ أي إن من يريد الحرب عليه أن يهيء نفسه لها عبر توفير المال والسلاح وسائر الوسائل الأخرى، ولكن المتورط والغارق في أحلامه فإنه ليس بوسعه إلا النوم والحلم واليقظة وتكرار ذلك.

أما قضية التخطيط لتسيير الحياة وتحديد الهدف، فالقرآن قد وقر ذلك على الإنسان، حيث بين العلاقات مع الزوجة والأولاد والأقارب والأصدقاء والغرباء إلى حد كبير، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمُولُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^١. وقال أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾^٢. وقال كذلك: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجْرَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ

١ - التوبة: ٤٦.

٢ - المنافقون: ٩.

٣ - التغابن: ١٤.

وَإِنِّيَأَ الرِّكَوَّةَ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ^١.

فإذا كانت لديك تجارة أو مال أو ولد ، فاحذر أن يكون ما لديك حجاباً بينك وبين الله ، فهذه وغيرها تمثل - في حال اتخاذها هدفاً - حجباً من الظلمات بإمكانها إضاعة المرء وإغراقه ، حيث لن يرى نوراً ولا عقلاً ولا إيماناً. وعلى هذا الأساس ينبغي إتخاذ الطريق الوسط في التعامل مع مفردات الحياة ، والاستفادة القصوى منها لتكون خير وسيلة نحو الوصول إلى ما أمرنا الله أن نصل إليه.

إنَّ المطلوب من الإنسان في علاقاته مع ذويه أن يتخذ السبيل الوسط ليكون خفيفاً في حياته ، وقد جاء في المناجاة : «فَوَا سَوَاتَاهُ عَدَاً مِنَ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْكَ إِذَا قِيلَ لِلْمُخَفِّينَ جُوزُوا وَلِلْمُثْقَلِينَ حُطُّوا. أَمَعَ الْمُخَفِّينَ أَجُوزُ أَمْ مَعَ الْمُثْقَلِينَ أَحْطُ»^٢. وهذا يعني أن القرآن الكريم وسنة الرسول الأعظم وأهل بيته عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ، يأمران الإنسان المؤمن ألاَّ يهجر الدنيا باعتبارها الوسيلة الوحيدة التي أنعم الله بها عليه ، وألاَّ يغرق في ظلماتها بعد أن اعتبرها هدفه الأول والأخير ، كما يأمرنا بصياغة تصور جديد عن الدنيا والآخرة ، وأول آيات ودلائل هذا التصور هو التخفيف من الإقبال على الدنيا وانتقاء ما

١- النور: ٣٧.

٢- بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٨١.

يعتبر منها وسيلة إعدادٍ للآخرة.

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِالْكُوفَةِ إِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ يُنَادِي النَّاسَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ حَتَّى يُسْمِعَ أَهْلَ الْمَسْجِدِ: أَيُّهَا النَّاسُ! تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، فَمَا التَّعَرُّجُ عَلَى الدُّنْيَا بَعْدَ نِدَاءٍ فِيهَا بِالرَّحِيلِ. تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ وَانْتَقِلُوا بِأَفْضَلِ مَا بَحَصَرْتَكُمْ مِنَ الرِّادِ وَهُوَ التَّقْوَى، وَاعْلَمُوا أَنَّ طَرِيقَكُمْ إِلَى الْمَعَادِ، وَمَمَرَّكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ، وَالْهَوَلُ الْأَعْظَمُ أَمَامَكُمْ، وَعَلَى طَرِيقِكُمْ عَقَبَةٌ كَثُودٌ وَمَنَازِلٌ مَهُولَةٌ مَخُوفَةٌ لَا بَدَّ لَكُمْ مِنَ الْمَمَرِّ عَلَيْهَا وَالْوُقُوفُ بِهَا، فَإِمَّا بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ فَنَجَاةٌ مِنْ هَوْلِهَا وَعَظَمَ خَطَرُهَا وَفَظَاعَةُ مَنْظَرِهَا وَشِدَّةُ مُخْتَبَرِهَا، وَإِمَّا بِهَلَكَةٍ لَيْسَ بَعْدَهَا انْجِبَارٌ»^١.

وليس التجهيز إلا تهيئة الوسائل للرحيل، من قبيل محاسبة النفس ومراقبتها بصورة مستمرة، والتأكد الدائم من صحة الهدف ووضوحه، والاستغفار والتوبة الى الله، وطلب العفو من ظلمناهم، والعمل على إسعاد الآخرين وتوفير فرص الخير لهم. إنَّ الاستقامة بحاجة الى إعداد النفس، وكذلك الجهاد والتضحية والإيثار والإنفاق، ومن دون الإعداد والتخطيط تكون حركة المرء بمثابة حصر الهواء في الشبك، وبمثابة الحلم والسراب.

١- الأملاني [للصدوق]، ص ٤٩٨.

الاستقامة والتربية الصالحة

التربية الصالحة والفكر الواعي هما وعاء الاستقامة دون شك، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال تصور انفصال التربية الصالحة والفكر الواعي عن أعمال البر والخير، من قبيل الإنفاق في سبيل الله، الإنفاق الذي ليس حُكراً على الإنفاق بالمال، بل ثَمَّ إنفاق بالجاء وبالعلم وبالوقت لبذله في سبيل الله، ومواجهة السيئة بالحسنة، لكسب أعداء الدين وتحويلهم الى مدافعين عن الدين. ولا شك إنَّ كل هذه المفاهيم وما يتبعها من مصاديق تشكل بمجموعها حياة الإنسان المؤمن المستقيم والصابر.

وأن يكون المرء ذا تربية ووعي صالحين وسليمين فيمارس أعمال البر ويعتق ما هو الخير من التصورات والقناعات، فإنه سيصل الى الذروة من الحظ والحياة الآمنة في الدنيا والآخرة.

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا ممن استعد للرحيل وأعدَّ نفسه للجنة، وأن يوفقنا لصالح الأعمال، ويجنّبنا السيئات، ويبصّرنا بعيوب أنفسنا، وأن يعيننا عليها كما أعان الصالحين على أنفسهم. ونسأله تبارك وتعالى أن يحيينا حياة محمد وآل محمد، وأن يمتتنا مِمات محمد وآل محمد، وأن يحشرنا مع محمد وآل محمد.

عندما يولد الانسان، تولد معه فرصتان متساويتان ككفتي الميزان اللتين لا رجحان لإحدهما على الأخرى: فرصة الخير، وفرصة الشر، فرصة الدخول الى الجنة، وفرصة الدخول في النار. ثم يدخل الانسان بعد ذلك في سلسلة لا تنتهي من الامتحانات والابتلاءات، وهذه الامتحانات تتعمق وتصبح أكثر صعوبة عند البلوغ، وفي بعض الأحيان تغدو امتحانات عسيرة شديدة.

وكلما ازدادت هذه الابتلاءات شدة وصعوبة، إزداد نقاء جوهر الانسان.

فما هو - يا ترى - معنى الفتنة للمؤمنين؟

إنها تعني، أنَّ في داخل المؤمن خليطاً من رواسب الشرك والذنوب والخطايا.

والفتنة هي التي تتكفل بإزالة رواسب الذنوب، والثقافة الجاهلية، والانحراف، وآثار التربية الفاسدة من نفس الانسان وقلبه. وقد تجسّد الفتنة في الجهاد في سبيل الله عز وجل أو العيش في دار الهجرة. والألم الذي يعاني منه الانسان في هذه الحالة، يؤدي الى تطهير القلب، كما تطهّر النار الذهب من الرواسب العالقة به. ولذلك فإنَّ الانسان المؤمن حقاً يحب الفتنة، ويتقبّلها بصدرٍ رحب، لكي يتخلص من رواسب ذنوبه.

